روايات مصرية للجيب

50

فانتازيا

د. أحمد خالد توفيق

www.liilas.com/vb3

هى والأنا

فانتازيا
مغامرات ممتعة
من أرض الخيال

روايات مصرية للجيب

هى والأنا

د. أحمد خالد توفيق

تعال معى .. مد لى يدك الباردة المبتلة بالعرق ، وتعال نخترق ذلك الظلام الكثيف الذى يقود إلى غابة عقلك الباطن .. تعال معى ولا تخف .. أنا معدوم الخبرة مثلك ، لكننا لن نكون وحدنا .. سوف نهتدى بالدكتور (فرويد) والدكتور (أدلر) والدكتور (يانج) وربما سواهم ممن قرروا أن يعرفوا كل شىء عن تلك الغابة ..

تعال معى ولا تخف .. سوف تفهم الكثير عن نفسك ، لكن صدقنى لن تعود الحياة كما كانت .. لن تعود أفراحك وأحزانك وأحلامك كما كنت تحسبها قبل هذه الرحلة المرعبة ..

www.liilas.com/vb3

العدد القادم
فلننقذ الدوتشى

الثمن فى مصر 300
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة

١ ـ لقاء تاخر ..

تنظر لها السكرتيرة بعينين زرقاوين باردتين من فوق إطار العوينات المنحدرة على قصبة أنفها .. كلهن لهن عيون زرق هذه الأيام ولا يمكنك أن تعرف الحقيقة أبدًا ..

تتوقف الفتاة عن الكلام فى الهاتف وتزيح قدح (الكابوتشينو) الموضوع أمامها ، ثم تسأل (عبير) :

ـ « طلباتك ؟ »

إذن هى من النوع الذى يقول (طلباتك ؟) مثل الأخرى .. شريف يعيش فى عالم متشابك صناعى معقم تحيط به فتيات يلبسن عوينات رقيقة ويقلن (طلباتك) ..

ثم تلك الأخرى التى تلبس الجينز والبادى ولها شعر منكوش مصبوغ بلون أشقر .. ماذا تريد ؟.. ولماذا تقف جوار المكتب ترمقها ولا ترفع عينيها عنها ؟.. لا تكره (عبير) شيئًا سوى الذين ينظرون لها فى فضول كأنها أغرب شىء فى العالم رأوه فى حياتهم .. دعك من أن فى هذا كله طابعًا لا يخفى من البستوريا .. التمثيل ..

ـ « هل المهندس (شريف) موجود ؟ »

ـ « أقول له من ؟ »

ترددت حينًا ثم بللت شفتها السفلى بلسانها ، وقالت :

ـ « (عبير) .. »

رفعت الفتاة الأولى السماعة وتكلمت .. بصوت غير مسموع . ثم رفعت عينها نحوها وأشارت بترفع إلى الردهة الجانبية ..

تمشى (عبير) فى ممر ضيق .. على الجانبين غرف لها باب زجاجى .. عشرات المكاتب .. يذكرها الأمر بعشرات الأفلام الأمريكية التى رأتها .. هذا جو متصنع غير أصيل .. لكن إلى أين ؟

هنا وجدت أنها تنظر إلى (شريف) الذى فتح باب مكتبه ووقف ينتظرها !

* * *

بطبيعة الحال كان اللقاء مربكًا غريبًا ..

هذا الرجل كان زوجى وكان يعرف أدق أسرارى .. فجأة .. نحن غريبان بالكامل .. ليس من حقه أن يلمس يدى أو يغلق باب مكتبه علينا ..

تجربة عجيبة هى .. ليست أليمة إلى هذا الحد لكنها غريبة ..

رواية (تولستوى) الضخمة التى قرأتها عدة مرات ، وخططت فيها آلاف الخطوط ، ورسمت على هامشها رسومًا عديدة بيدك الساذجة المتعرجة .. هذه الرواية باعتها أمك لتاجر الأشياء

www.liilas.com

المستعملة .. بعد عامين وجدت ذات الرواية .. وجدتها عند بائع للكتب المستعملة .. مددت يدك تتصفحينها فجاء صوت البائع الصارم :

- « هذه ليست طماطم يا (أبلة) .. لا تتلفى الكتب ما لم تكن عندك نية الشراء .. »

نظرت له غير مصدقة .. الكتاب الذى كان لك وتعرفين كل صفحة فيه .. خطوطك فى كل سنتيمتر منه .. هذا الكتاب لم يعد من حقك أن تتصفحيه أو تطيلى النظر له .. فقط من أجل قهر هذا الشعور القاسى ابتعت الكتاب من جديد ..

هذه المرة لن تبتاعى (شريف) من جديد .. لقد انتهى كل شىء يا صغيرة ..

تجلس على مقعد دوّار متعب كأنها على صهوة حصان فى سباق (رودیو) .. لو ظلت جالسة دقيقة كاملة ولم تسقط فلها هذه البندقية (الونشستر) جائزة .. يا هووووووه !.. ما أجمل حياة الغرب أيها العم (ماكماهون) العجوز ..

هو كذلك - (شريف) ولكن العم (ماكماهون) - يجلس على مقعد مماثل ويضع قدميه على قطعة بارزة من المقعد ..

كان (شريف) محتفظًا بوسامته وأناقته .. يبدو مديرًا تنفيذيًا فى شركة أمريكية لكثر من أى شىء آخر .. ما زالت خصلة الشعر على جبينه تعطيه ذلك الانطباع بالطفولة ، وما زالت فى

عينيه تلك السذاجة التى تقول إنه لا يفقه شيئًا عن العالم الخارجى تقريبًا .. (فالنتين مايكل سميث) فى رواية (غريب فى أرض غريبة) .. الفتى الذى تربى فى المريخ ولا يعرف أى شىء عن طريقة حياة الأرضيين ولا قواعدهم ..

صمت طويل مربك ساد .. قطعه بأن قال :

- « هل تشربين شيئًا ؟ »

هزت رأسها أن لا ..

- « كيف حالك يا (عبير) ؟ وكيف حال ؟ »

- « بخير .. »

لسبب ما شعرت بأنها لا ترغب فى أن تسمح له بنطق اسم ابنتهما .. يجب أن تتكلم بسرعة .. يجب .. لا ينبغى أن يعتقد للحظة أنها جاءت تجدد الوداد أو تستجدى مالاً أو أى شىء من هذا القبيل .. مهمتها محددة شبه رسمية وعليه أن يعرف هذا .. رسمت على وجهها تعبير فتاة ترغب فى إصلاح جهاز الكمبيوتر الخاص بها ونظرت له فى حزم ..

رباه !.. لشد ما تحملت وقاومت .. لشد ما ضغطت على كبريائى كى أتى هنا ..!.. كم هو ثمن باهظ أدفعه لـ (فالنتازيا) ..

قبل أن تفتح فاها قال باسمًا :

ـ « البرنامج ليس على ما يرام .. أليس كذلك ؟ »

نظرت له فى دهشة . وقالت :

ـ « كيف عرفت ؟ »

ـ « لأنك لن تأتى إلا لهذا السبب .. أنا أعرفك جيدًا .. »

قالت وهى تشعر بامتنان شديد لأنه أراحها من التفسيرات :

ـ « الكمبيوتر كله ليس على ما يرام .. يريدون منى أن أستبدل القرص الصلب .. هذا معناه مسح البرنامج .. »

ـ « هذا صحيح .. لكن الجهاز قديم جدًا على كل حال .. أعتقد أنه تداعى تمامًا .. »

ـ « والحل ؟ »

فكر حينًا ثم نهض .. اتجه إلى ركن المكتب وانتقى شيئًا يشبه الحقيبة ، ثم فتح الدرج وراح يعبث وسط مجموعة من الأقراص المدمجة .. فى النهاية دس قرصًا فى الشىء الذى اتضح أنه جهاز كمبيوتر محمول .. وراح يقوم بعملية ما .. ربطة عنقه تتدلى على لوحة المفاتيح فيزيحها جانبًا ويواصل ما يقوم به ..

سألته وهى تجلس على طرف المقعد :

ـ « هل هناك أمل ما ؟ »

قال وهو ينظر إلى الشاشة :

ـ « الحقيقة أننى وجدت عندى نسخة من البرنامج .. كنت أحسب أننى تخلصت من كل النسخ ، وأنت تعرفين أننى صرفت النظر عن الفكرة ، لكن هذه النسخة صالحة .. تعالى هنا .. »

نهضت (عبير) فى حذر ووقفت جواره .. نظرت إلى شاشة الجهاز المحمول فرأت أيقونة على سطح المكتب كتب تحتها DG.

أغلق الجهاز المحمول باسمًا ، فسألته :

ـ « المشكلة هى جهاز الكمبيوتر نفسه .. كيف أنسخ هذا البرنامج عليه وهو تالف ؟ »

قال وهو يصلح من ربطة عنقه :

ـ « لا مشكلة .. لن تنسخى أى شىء .. ستحتفظى بجهاز الكمبيوتر القديم باعتباره (عشة) دجاج .. هذا الجهاز لك ! »

ووجدت الكمبيوتر المحمول فى يدها .. فهتفت وهى تثب للوراء كأنها قط مبتل :

ـ « مستحيل .. كم ثمن هذا الشىء ؟ »

قال محتفظًا بابتسامته الهادئة :

ـ « إنه باهظ الثمن .. لكنه يخصنى وقد انتويت أن أستبدل به واحدًا أحدث .. أرجو أن تقبليه وأعتقد أنك لن تجدى عسرًا فى توصيله إلى الأقطاب .. العملية سهلة يمكن أن يقوم بها أى طفل .. »

- « مستحيل .. »

قال فى برود :

- « لا أعرف طريقة أخرى لاستعادة البرنامج .. إما أن تأخذى الجهاز بما عليه أو تنسى الأمر .. »

- « يمكن أن أصلح الجهاز القديم وأنسخ عليه البرنامج .. »

- « لا أضمن أن يظل سليمًا أسبوعًا آخر .. هناك أشياء يعتبر إصلاحها حماقة ومضيعة للوقت .. »

- « لن أقبل هذا الشىء .. »

- « خذيه أو اتركيه .. أنت تعرفين جيدًا أننى لا أقدم هذه الهدية لأى غرض آخر سوى رغبتى فى أن أريحك .. لن أقبل ثمنًا .. »

كانت تعرف أنه صادق .. هو لا يريد منها أى شىء .. هو لا يقيم المال كما يقيمه الآخرون . فقد كان طيلة حياته يجد ما يفيض منه .. لكن لماذا يتخلى المرء عن شىء باهظ الثمن كهذا ؟ هل لمجرد الشفقة أم المجاملة أم هو شىء آخر ؟

لا تدرى حقًا .

كان الإغراء قويًا .. لن تعود هنا أبدًا فلماذا لا تأخذ ما تقدر عليه ؟ عندما يتعلق الأمر بفانتازيا فالأمر يختلف عن مجرد جشع مادى عادى ..

لقد نسيت أن تشكره أو تهز رأسها تحية .. فقط أخذت الجهاز ..

هكذا نهضت ووضعت الحقيبة تحت إبطها .. نظرت إلى الأرض ولم تجد شيئًا تقوله على الفور ، سوى :

- « كيف ؟ كيف حال المدام ؟ »

كان سؤالاً غبيًا .. أغبى سؤال ممكن ..

لكنه قال وهو يدس القلم فى جيب قميصه ذى اللون السماوى :

- « لا توجد مدام .. لقد تم طلاقنا منذ شهرين يا (عبير) .. »

نظرت له ربع ثانية ، ثم سرعان ما خرجت من الباب ..

سمعته يناديها لكنها لم تتبين ما يريد ..

كانت تركض تقريبًا فى الطرقات حاملة كنزها ..

* * *

www.liilas.com

2 ـ كابوس ..

هل تم الانتقال بسلاسة أم أنها تخيلت هذا ؟

هى تعرف أن الأمر رقمى .. أى إنه يجب أن يتم بذات الطريقة فى كل مرة .. لن يجعلها الجهاز الجديد تنتقل بسلاسة أكثر ما لم يكن شىء قد تبدل فى البرنامج .. لكن كل شىء حدث بسهولة فعلا ..

هى الآن تقف فى فانتازيا .. الهواء يطير شعرها وإلى جوارها يقف المرشد ينظر لها باسمًا بتلك الطريقة التى تقول (ثمة ـ خطأ ـ ما) .. لكنك لا تعرف الخطأ أبدًا ..

قال لها :

ـ « مرحبًا يا أليس .. ها نحن أولاء نعود للأيام الخالية .. »

قالت فى تحفظ :

ـ « لقد غامرت فاستعدت البرنامج ومعه جهاز كمبيوتر أنيق .. »

ـ « حقًا .. جهاز أنيق عالى القدرات .. لكن هل يدل هذا التصرف على شىء معين ؟ »

ـ « لا أهتم .. يدل على أنه مهذب للغاية أو إنه يشفق على للغاية .. لا أريد التكهن .. المهم أننى هنا والآن .. »

ـ « ألم تفكرى فى احتمال إضافى ؟ »

نظرت له طويلاً ولم ترد ، فقال :

ـ « هل كنت ترغبين فى الحصول على البرنامج فقط عندما ذهبت ؟ هل كان هناك سؤال يعتمل فى عقلك الباطن ؟ ألم تتلقى الجواب عنه ؟ »

صعد الدم إلى رأسها .. ليس بالضبط .. لقد احتشد فى خديها .. لم تسامح نفسها على هذا .. كان الاحمرار نتيجة الحياء لكنها نجحت بكثير من الجهد أن تحوله إلى حنق ..

ـ « أنت تهذى .. لست تافهة إلى هذا الحد .. لست بلا كرامة إلى هذا الحد ! »

ثم أضافت :

ـ « ماذا حدث بعد ما أخذت الجهاز ؟ نسيت كل شىء عما قاله (شريف) .. تركز كل تفكيرى فى الجهاز .. »

قال المرشد بذات الطريقة الخبيثة الغامضة :

ـ « نعم .. إن الدافع كان قويًا إلى حد أن الكبت كان أعلى .. لم تجسرى على أن تعترفى لنفسك بشىء كهذا .. »

ثم سألها وهو يعبث بالقلم الجاف الذى يحمله (تك ـ تك) :

ـ « هل رأيت أية أحلام أثناء الانتقال ؟ »

- « لا أعتقد .. تم هذا بسرعة .. ولكن .. أعتقد أننى رأيت نفسى راقدة على منضدة جراحة .. يبدو أنها جراحة تأخرت كثيرًا .. كان الجراح هو مدرس اللغة العربية فى المدرسة الابتدائية .. كنت خائفة ، لكنه قال لى : العملية سهلة يمكن أن يقوم بها أى طفل .. »

قال المرشد :

- « هذا هو عقلك الباطن يفصح عن مكنوناته .. أنت تحلمين بالعودة لشريف .. »

- « أنت مخبول ! »

- « وأنت تكبتين هذه الرغبة بقوة .. لا تعترفين بها لنفسك .. إن العملية الجراحية هى الصيغة الرمزية لدى العقل الباطن لرمز الزواج .. مدرس اللغة العربية يقول لك : العملية سهلة يمكن أن يقوم بها أى طفل .. من الذى قال لك هذه العبارة ؟ فكرى جيدًا .. »

راحت تفكر .. ثم تقلص وجهها .. هذا صحيح !

قالت فى ارتباك :

- « قالها (شريف) عندما كان يتكلم عن توصيل الأقطاب بجهاز الكمبيوتر .. ما هى المشكلة ؟ »

- « مدرس اللغة العربية هو أول رجل تعرفينه فى حياتك عن كثب .. لهذا اتخذت منه نموذجًا لى .. باختصار : هو رمز الرجل الدائم عندك .. فى حلمك هذا تذكر (شريف) فى شكله .. هكذا ظهر (شريف) فى الحلم .. حلم له علاقة بالزواج وهى قصة قد

(تأخرت كثيرًا) .. كما ترين أنت تحلمين بالعودة لشريف لكنك لا تعترفين بهذا .. »

قالت بمزيد من الارتباك :

- « أنت تزداد حماقة .. هذا نىٌ لعلق الحقيقة بشكل مستفز .. »

قال فى تواضع :

- « ربما .. لست واحدًا من المختصين الذين ستقابلينهم اليوم .. لكن المعتاد أن ينكر الناس ما يجابههم به المحلل النفسى .. ينكرونه وهم يؤمنون أنهم على حق فى هذا الإنكار .. »

- « إذن ما المقياس ؟ لم يكذب أى طرف هنا .. لماذا لا يكون سبب إنكارهم أن هذا هراء فعلاً ؟ »

- « لا يوجد مقياس .. لهذا يحبو علم النفس حتى اليوم .. ولهذا هو أقرب للفلسفة منه إلى باقى فروع الطب التى تقاس فى المختبر أو بالترمومتر وعد النبض وجهاز الضغط والميزان .. لا يوجد اختبار معملى يقيس الهستيريا .. لا يمكن تصوير الاكتئاب بالأشعة .. هذه هى المشكلة .. »

حكت رأسها ، ثم عادت تسأل :

- « قلت إننى سأقابل مختصين اليوم ؟ »

- « نعم .. لهذا سوف أتركك الآن .. فقط أنصحك أن تصغى جيدًا وأن تتعلمى شيئًا مما يقال .. »

* * *

للمرة الثالثة كانت الثعابين ..

الثعابين التى تملأ الردهة وتزحف فى كل مكان .. هل الثعابين تتسلق الجدران ؟ ربما .. إنها تفعل هذا هنا على الأقل ..

كانت تقف على باب المطبخ عالمة أنها لن تستطيع الوصول إلى غرفتها أبدًا .. حافية القدمين وهذا يجعلها هشة جدًا .. الهشاشة تبدأ بقدمين عاريتين ..

كلهم هناك فى الجانب الآخر من البيت يصخبون ويتكلمون بصوت عال .. تعالوا وساعدونى .. إن أباها هناك .. لابد أن أباها سيعرف ما يجب عمله ..

فتحت فمها لتناديه . لكن أين ذهب صوتها ؟ لا صوت على الإطلاق .. إنها تصرخ لكن لا يخرج شىء ..

قدماها ثقيلتان .. حركتها غبية جدًا ..

الثعابين جاءت على رائحة الأسماك .. أسماك ؟ هل كانت هناك أسماك ؟ لا تذكر .. لكن رائحتها عطنة تملأ المطبخ من ورائها ، وهى تعرف يقينًا أن خالها يكره أغانى (أم كلثوم) ..

تصرخ من جديد ..

لكن .. إنها قادرة على أن تمشى على الجدار .. لم تدر من قبل أنها قادرة على ذلك لكن هذا حقيقى ..

يمكنها أن تتسلق الجدار وتلحق بالأسرة ..

تمشى فى حذر وترى الدنيا مقلوبة .. تدنو من المكان الذى تجتمع فيه الأسرة ..

ما هذه الشقة ؟ ليست شقة أسرتها على الإطلاق .. هناك لوحة عملاقة على الجدار تظهر فتاة طفلة فى حقل تجلس جوار بئر .. هناك مصباح قديم كليب الضوء يتدلى من أعلى .. حذار من أن تلمسه وإلا صعقتها الكهرباء ..

إنها تقترب من مصدر الصخب ..

لكن .. لقد تأخرت كثيرًا ..

الكل على الأرض وسط الثعابين والكل قد مات .. وجوه بنفسجية محتقنة وألسنة تبرز من أفواه .. لقد ماتوا .. لدغتهم الثعابين .. لا تعرف وجوه هؤلاء الموتى لكنها تعرف فى سرها أنها وجوه أسرتها ..

تصرخ من جديد .. ترى هذا كله من أعلى وقوتها على التماسك تتلاشى .

لو سقطت لانتهيت ..

لكن .. ما هذا الذى يزحف على ذراعك باردًا لزجًا مقززًا ؟

يقولون إن الثعابين ليست لزجة .. ربما .. لكنها بالتأكيد باردة ومقززة و ...

www.liilas.com

هذا لا يليق بك

تمسكى يا فتاة بماسورة المياه ..

ماسورة مياه فى غرفة النوم .. لا مشكلة هنالك ..

تمسكى بها جيدًا .. الشىء البارد يواصل الزحف .. إنه يتسلل إلى ما تحت إبطك .. إنه بالداخل بالكامل .. يزحف عند لوح كتفك ..

لو كان ثعبانًا فقد حان وقت اللدغة ..

تمسكى ..

على الأرض يرفع ثعبان من نوع الكوبرا رأسه الشامخ الشرير ويفح .. تمسكى ..

لكن الماسورة تنهار .. لن تأتى السقطة منك بل من الماسورة اللعينة ..

الماء يتساقط فوق رأسك .. الماء يبلل كل شىء .. الماء ..

ثم السقطة ..

آهههههههه !

* * *

الظلام ..

صوت من يتكلمون ..

ضوء أباجورة جوار الفراش ..

الآن ترى امرأة فى منتصف العمر ورجلاً بدينًا نصف أصلع ذا شارب كث يقفان جوار فراشها .. هناك فتاة شابة تجلس جوارها فى الفراش ونصفها تحت الأغطية ، تنظر لها فى رعب لاعص ..

لا تحتاج إلى كشف عائلة كى تعرف من هؤلاء .. إنهم أبوها وأمها وأختها طبعًا .. لقد صرخت وهى تحلم بهذا الكابوس فأيقظت الجميع ..

الأم تقول وهى تربت على كتفها :

- « لا تخافى يا (غادة) .. فلتتلى المعوذتين يا بنيتى .. »

والأب يقول فى توتر :

- « للمرة الرابعة فى أسبوع واحد .. هل هو ذات الكابوس ؟ »

هزت رأسها أن نعم .. كانت تعرف أنه ذات الكابوس .. هذا مؤكد ..

قال الأب فى شك :

- « إذن .. »

هنا صاحت الفتاة وهى تثب من الفراش ، كأنما لسعها ثعبان تخلف من الكابوس :

ـ « فعلاً !!! »

ورفعت الأم الغطاء لتكتشف (عبير) أن الفراش مبلل تمامًا إنها فى العشرين من العمر تقريبًا لكن فراشها مبلل ومن الواضح أن هذه ليست أول مرة .. ماسورة المساء التى انفجرت فى الكابوس لم تكن محض خيال ..

صرخت الفتاة وهى تبتعد كيلومترين عن الفراش ، وقد تقلص وجهها اشمئزازًا :

ـ « ألا تخجلين من نفسك ؟ كالأطفال الرضع ! »

قالت الأم فى غضب :

ـ « كأنها تعمدت ذلك يا (صفاء) .. كفى عن هذا السخف سوف أبدل الملاءات حالاً .. »

صرخت (صفاء) وقد وقفت متباعدة الساقين ويديها فى خصرها كأنها فى مباراة مصارعة :

ـ « لن أنام معها فى فراش واحد بعد اليوم ! »

قالت الأم فى حزم :

ـ « ليكن .. لكن تذكرى أنه لا يوجد فراش ثالث فى البيت .. سوف تنامين على الأرض إذا أصررت .. »

ـ « يا سلام ! ولماذا لا تنام هى ؟ »

ـ « لأنها المريضة .. ولأنها الأخت الكبرى ! »

كانت (عبير) فى حالة لا تسمح لها بالاعتراض أو الدفاع عن نفسها .. أنا بللت الفراش .. أنا بللت الفراش ! هذا هو كل ما تعرفه ..

فرغت الأم من تبديل الملاءات ومن إقناع الفتاة الشرسة (صفاء) بأن تنام جوار أختها .. ثم أغلقت النور وانصرفت مع الأب ..

هنا فقط أدركت (عبير) ـ من صوتها ـ أنها تبكى !

* * *

كان الأستاذ (جودة) موجه الرياضيات رجلاً حسن السمعة ، ومن المتفق عليه أن بنتيه جوهرتان تنتظران المحظوظين اللذين سيظفران بهما .. لم يكن يعطى دروسًا خصوصية لكنه ورث أملاكًا لا بأس بها فى قريته ؛ لذا كان على درجة متوسطة من الثراء .. الدرجة التى كان يطلق عليها اسم (الستر) ، وهو ما كان يستفز (عبير) فى طفولتها .. تسأله عما إذا كانوا أثرياء ، فيقول :

ـ « نحن مستورون يا (غادة) .. »

وكانت هى تجن غيظًا .. ما هو مقدار الستر وما معناه لو ترجم إلى أرقام فى المصرف ؟ هل يساوى ألف جنيه مثلاً ؟ هل يساوى مليونًا ؟

لكنهم مستورون والكل يعرف هذا ..

هو ـ كأى أب يعمل فى التربية والتعليم ـ كان يغلق بابه أمام الخطاب إلى أن تنتهى الفتاتان من الدراسة ..

(عبير) أو (غادة) طالبة فى كلية الآداب قسم اللغة العربية . أختها الصغرى (صفاء) طالبة فى كلية الهندسة ، ويبدو أنها ورثت ذكاء أبيها .. الأم ست بيت بالمعنى الحرفى للكلمة ، وعلى الأرجح لا تقدر على المشى خمسة أمتار فى الشارع قبل أن تضل طريقها ..

هذه هى الأسرة الهادئة التى اختارت هذه الكارثة مهبط مطارد للنزل عجلاتها وتحط ..

كارثة بالطبع .. إن القبول الليلى لكارثة بالنسبة لطفل فى التاسعة فضلاً عن فتاة شابة ناضجة فى العشرين ؟ ماذا عن زوج المستقبل الذى لن يرحب كثيرًا ـ على الأرجح ـ بزوجة تبلل الفراش كل ليلة ؟

من أين جاءت هذه الكوابيس ؟ وما سببها ؟ وكيف استطاعت أن تتجاوز كل أسوار البخور والتعاويذ التى نثرتها الأم حول ابنتها ؟

فى اليوم التالى جلس الأب مع ابنته (غادة) ـ لا تنس أنها (عبير) من فضلك ـ فى الشرفة ، وراح يتأمل بائع الفول الواقف على الناصية بقلب محتويات قدره الكبير .. راح الأب يتكلم عن الفارق بين هذا الفول وفول بائع آخر يعرفه فى (الحسين) .. هذا الرجل غشاش ولا يضع الكثير من الزيت الحار ، كما أن حبة الفول غير ناضجة .. فارق كبير بين من يدمس الفول بالطريقة البيتية المعتادة ومن يدمسه تحت الأرض فى قمائن مخصصة لذلك .. كلام فارغ لا أول له ولا آخر ، فأدركت أنه يمهد الطريق بلعبة نفسية كى تقبل ما هو آت ..

ـ « أنا لا أثق به لكنى أرى أن نجرب .. »

كان يتكلم طبعًا عن الشيخ (زينهم) الذى تحكى كل صديقات الأم عن أن (سره باتع) .. من الواضح أن كل من لا تنجب ذهبت إليه فرزقت بعشرة أطفال .. كل من لم تتزوج ذهبت إليه فتزوجت سبعة رجال .. كل من مات ذهب إليه فعاد حيًا وصار بطل الجمهورية فى ألعاب القوى ..

قالت له وهى موشكة على البكاء :

ـ « لكن أكثرهم نصابون يا أبى .. هذا لا يليق بك .. »

نظر لها نظرة طويلة ، ثم قال :

ـ « والكوابيس التى تطاردك كل ليلة .. هل هى تليق بى ؟ »

* * *

www.liilas.com

3 ـ العيادة فى أول الشارع ..

لم تكن تجربة الشيخ (زينهم) تختلف عن عشرات القصص المماثلة ..

إنه يعيش فى قرية قرب بنها ، وقد استأجر الأب سيارة مخصوصة ركبتها (عبير) جوار أمها .. وكان يوسعك أن ترى جيشاً من (المصدقين) يلتف فى ساحة القرية حول دار الشيخ .. هذا وقد مجموعة من المهن الفرعية مثل بيع الشاى والسقاء والصحف والسجائر .. لقد صار الشيخ (زينهم) مركز قوة اقتصادية للبلد ولن يتخلى عنها بسهولة أبدًا ..

قالت هامسة :

ـ « هـ هـ .. ع .. فلى .. فلى .. »

سألها الأب عما تقول فرفعت صوتها لتقول فى شىء من الاستمتاع :

ـ « إما أن هناك عملاً سفليًا مدفونًا فى المقابر لى ، وإما أنى متزوجة من جنى .. »

استعذت الأم من الشيطان الرجيم ودعت أن يجعل لـ (كلامنا خفيفًا عليهم) ، بينما قال الأب المهموم :

ـ « فلندع الله أن يكون الأمر كذلك .. على الأقل يكون هناك سبب لما يحدث لك .. »

وقفت (عبير) جوار السيارة ترمق الجماهير .. حينما دنت منها امرأة عجوز تتوكأ على عصوين وتفوح منها رائحة اللبن الرائب ، وقالت لها :

ـ « إنهما ساقاى يا شابة .. يقولون إنه الروماتيزم .. وأنت ؟ لابد أنك جئت تطلبين زوجًا .. »

ابتسمت (عبير) وهزت رأسها موافقة ، ثم غمغمت :

ـ « حرام أن أكون فى الثلاثين من دون أن أتزوج .. كلما تقدم لى شاب أصابه مرض .. »

هتفت العجوز :

ـ « عين الحسود .. وبرغم جمالك الواضح .. ما اسمك يا عروس ؟ »

قالت (عبير) فى حياء :

ـ « اسمى (شاهيناز) .. »

ربتت العجوز على كتفها وابتعدت وهى تدعو لها ..

في النهاية استطاعت الأسرة أن تدخل .. لابد أن هذا حدث بعد ثلاث ساعات وبعد الكثير من البقشيش لحارس قدس الأقداس ..

كانت هناك قاعة فسيحة تعبق برائحة البخور .. وكان الشيخ (زيلهم) شيئًا بدينًا ملتحيًا يجلس علي بساط ولا يكف عن إلقاء البخور في النار ..

رأى الأسرة المذعورة على الباب فقال بصوت عميق راجف مدوٍ :

ـ « تعالى يا (شاهيناااااااااااااااااااز) !! »

لم يفهم الأب والأم ما يحدث لكن (عبير) اقتربت من الشيخ أكثر، وقالت وهي ترتجف :

ـ « يا سيدنا الشيخ .. إنهم .. إنهم .. »

قال بذات الصوت الاحتفالي المدوى وهو يلقى بالمزيد من البخور :

ـ « نعم .. نعم .. أعرف كل شيء .. هناك جنى واقع في غرامك .. هو لا يريد لبشرى أن يظفر بك .. لهذا لابد من صرفه .. لابد من جعله يكرهك .. لهذا أنت في الثلاثين من دون زواج .. »

هنا نظرت (عبير) إلى الأب فرأته يبادلها نظرات مذهولة حائرة .

قالت باسمة :

ـ « اسمى (شاهيناز) .. في الثلاثين .. يهرب مني الخطاب .. هل من تعليق ؟ إن الشيخ مكشوف عنه الحجاب فعلا .. »

قال الشيخ في فخر ولحيته تهتز طربًا :

ـ « العلم كله عندنا .. فقط نحن نحقد على بعضنا ولا نؤمن بأهل العلم .. »

من دون كلمة أخرى جرّت (عبير) أباها من يده متجهة إلى الباب ..

وفي الخارج التف حولها الملهوفون وطالبو البركة وراحوا يسألونها عما حدث بالداخل ..

كأنها خارجة من لقاء مغلق للمحادثات مع رئيس الولايات المتحدة ؛ لذا قالت بلهجة من يصرح للصحفيين :

ـ « الرجل بارع فعلاً .. لقد شخّص كل شيء .. »

همس الأب في أذنها وهم يعودون إلى السيارة وسط الزحام :

ـ « ما هو موضوع شاهيناز هذا ؟ »

ـ « الموضوع بكل بساطة أن هذا نصاب آخر .. لقد أنفقت الكثير من المال حتى اللحظة يا أبى لكننا على الأقل لن ننفق مليمًا آخر .. أعتقد أن علينا أن نجرب الطب النفسى .. »

هتفت الأم وهى تضرب صدرها بيدها :

ـ « يا ندامتى ! طب نفسى ! معنى هذا أنك مجنونة ! »

قال الأب بلهجة متعقلة :

ـ « الطب النفسى لا يعنى الجنون يا (عظيمة) .. دعك من أن الجنون أفضل من أن يعجب بها جنى .. سوف نقوم بزيارة سريعة لطبيب نفسى ونرى ما يقدمه لنا .. »

وسرعان ما كانوا فى السيارة التى تشق بهم الطرق الترابية خارجين من القرية ..

* * *

الأب هو أول من لاحظ اللافتة ..

كان عائدًا إلى البيت غارقًا فى العرق ، حاملاً البطيخة كواجب كل أب مصرى نحو أسرته ، والجريدة تحت إبطه .. بيدو أنه توقف عند اللافتة قبل أن يعبر الشارع .. لابد أنه ارتجف .. ثم أن قلبه خفق للحظة .. ثم إنه صعد الدرج ببطء بسبب ثقل البطيخة ليسأل ويعرف المواعيد ..

سرعان ما كان يدخل الشقة ليضع البطيخة على المائدة فى منتصف الصالة .. وككل أب مصرى كان من واجبه الاطمئنان أولاً :

ـ « أرجو أن تشقيها يا (عظيمة) .. أريد أن أرى إن كان البائع نصابًا أم لا .. »

من المطبخ مبتلة اليدين والثوب جاءت الزوجة .. فى يدها سكين عملاقة .. بسملت ثم غرست السكين فى البطيخة وحركتها .. انفصل النصفان أبيضين من غير سوء ..

تقلص وجه الأب اشمئزازًا وغيظًا .. لكن الوقت كان ضيقًا لا يسمح بالعودة للشجار مع البائع ..

هنا سقطت (عبير) على الأرض بلا إنذار سابق .. لقد تخلت عنها ساقاها ..

جرى الأب يسندها والأم ترش وجهها بالماء وهى تستعيذ بالله .. ماذا دهاك يا بليتى ؟ كل يوم يجد جديد .. تمنت أن تسألها السؤال الذى كانت تخشاه .. هل هى واقعة فى حب بلا أمل ؟ من ذلك الوغد المخادع إذن ؟ الأب أيضًا تمنى لو يتأكد من هذه النقطة بالذات لكنه لم يعرف كيف يوجه السؤال ..

لكن (عبير) كانت تعرف .. تعرف أنها لا تعرف شيئًا على الإطلاق .. فقط منظر نصفى البطيخة وهما ينفصلان بدا لها مرعبًا .. لا تفهم السبب .. فوبيا البطيخ .. هل هناك شىء مماثل ؟

www.liilas.com

ثمة حقيقة واحدة .. هى أنها مجنونة أو على وشك الجنون ..

قال الأب وهو يتجه للحمام كى يتوضأ ليلحق بصلاة الظهر :

ـ « فلتلبس ثيابها بسرعة .. الطبيب فى عيادته الآن .. يجب أن نلحق به .. »

ـ « أى طبيب ؟ »

ـ « طبيب نفسى .. يبدو أنه بارع .. »

ـ « ألن تتناول الغداء ؟ »

ـ « عندما نعود سيكون هناك وقت كثير . أما الآن فعليها أن تسرع .. »

هكذا كانت (عبير) فى غرفتها ترتدى ثياب الخروج . وبعد عشر دقائق كانت مع أبيها تحت شمس يونيو الحارقة تتأبط ذراعه وهما يمشيان نحو عيادة الطبيب فى أول الشارع ..

ماذا تقول للطبيب ؟ إنها ترى ثعابين فى نومها وإنها لا تطيق منظر البطيخ المشقوقة ؟ صحيح أنه مهيأ لسماع السخف ، لكن ليس إلى هذا الحد ..

وأخيرًا رأت أباها ينظر لأعلى فنظرت معه ..

بناية عتيقة لم ترها من قبل قط .. لافتة صغيرة بحجم صفحة هذا الكتيب عليها الاسم التالى :

سيجموند فرويد
محلل نفسى

هتفت (عبير) غير مصدقة :

ـ « لكن .. لكننى أعرف هذا الرجل .. إنه .. »

قال الأب وهو يعد ما فى جيبه :

ـ « أعلم هو أو نحو ذلك .. لا أعرف بالضبط .. يقولون إنه بارع .. سوف نرى .. »

كانت هى توشك على الجنون من الانبهار ..

(فرويد) شخصيًا هنا وسوف يقوم بعلاجها .. لعبة أخرى من ألعاب فانتازيا .. لكنها لا تشعر بأى نوع من السعادة .. تشعر برهبة لا حد لها ..

وأنا لا ألومها كثيرًا على هذا ..

* * *

4 ـ عزيزى فرويد ..

كانت العيادة عتيقة الطراز يمكن بسهولة أن تقول إنها تنتمى لأوائل القرن العشرين ..

هناك شهادات معلقة كتبت بالألمانية على الجدران التى ثبتت عليها مصابيح تعمل بالكيروسين .. هناك لوحات تأثيرية .. هنا صور تحمل طابع (السيبيا) العتيق الذى يجعل الألوان مزيجا من البنى والأصفر الحبيبى .. فى الصور ترى طلبة دفعة ما فى العصر الذى كان الطلبة فيه عمالقة ملتحين يرتدون بذلات كاملة كأن سن الطالب منهم خمسون عاما .. هناك صور لرجل منهم يقف مع امرأة عتيقة بدورها مع طفل .. هناك ستائر بلون وإن بدت تتآكل من القدم .. الأثاث قديم جدًا يحمل طابع البيئة المميز للماضى .. ومن مكان ما تدوى موسيقا (باخ) ..

حتى على الباب يمكنك أن تشم رائحة الغليون القوية المحببة

من موضع ما ظهرت ممرضة عابسة الوجه تتكلم بلغة غريب ، وسألت :

ـ « هل لديكما موعد ؟ »

قال الأب فى ارتباك :

ـ « لا .. هذه أول مرة .. »

اتجهت الممرضة إلى منضدة صغيرة عتيقة الطراز وفتحت دفترًا دونت فيه شيئًا ما .. ثم قالت :

ـ « يمكنكما الدخول ! »

هكذا بهذه البساطة ! لم يدفعا مالاً ، ولم تأخذ أسماء ، ولم ينتظرا ثانية واحدة .. هذا مزعج .. المرء يحتاج إلى لحظات يستجمع فيها روعه ويتأهب نفسيًا قبل دخول عيادة الطبيب .. الدخول فجأة بهذه الطريقة يشعرك بأن الباب انفتح وأنت لم تفرغ من ارتداء ثيابك ..

يبدو أن هذه العيادة ليست رائجة إلى هذا الحد ..

تفتح الباب العتيق العملاق المزدان باللقوش ، لتخرج منه سحابة من دخان الغليون ، ووجدت (عبير) نفسها تدخل إلى عالم (فرويد) ..

* * *

عندما تدخل غرفة الفحص يلفت نظرك شىء واحد : صعوبة الرؤية .. السبب هو الإضاءة الخافتة عامة ، والدخان الذى يفعم الجو .

هناك أريكة طويلة عليها أقمشة تعطيها طابعًا شرقيًا .. وهناك مقعدان بسيطان أمامها .. لكن أين هو نفسه ؟

سمعت الصوت العميق يقول بلكنة ألمانية لا شك فيها :

- « أرجو أن تنتظر أنت فى الخارج .. »

رفعت رأسها لترى مصدر الصوت ، فوجدت العينين الصارمتين الثاقبتين تنظران لها .. من الذى قال إن العينين لا تشعان الضوء ؟ كلما رأت عينين مماثلتين بدأت تشك فى صواب رأى (ابن الهيلم) عالم النفسيات العظيم ..

كان الكلام موجهًا لأبيها طبعًا ، وحاول الأب أن يحتج فى وهن ، لكن هيبة الرجل كانت كاسحة ، هكذا خرج من الغرفة ..

من جديد عاد الصوت العميق يقول :

- « أرجو أن ترقدى على الأريكة .. »

هنا أدركت أنه يجلس على مقعد بحيث يكون خلف الأريكة فلا تراه الراقد فوقها . كان يضع ساقًا على ساق ، ويمسك بقلمين وقد فتح مفكرة صغيرة ..

رقدت على الأريكة ، وإن ضايقها أنها لا تستطيع أن تملأ عينها منه .. فقط اختلست نظرة فرأت ذلك الوجه المسن واللحية

البيضاء الأنيقة .. عوينات شفافة تتحدر على أرنبة الأنف بطل من فوقها كشاقاه الثاقبان .. نظرة متعبة عارفة تقول بوضوح : أنت لن تدهشينى أبدًا .. لقد رأيت كل شىء من قبل ..

تنهدت ونظرت إلى السقف وهى تصغى للموسيقا القادم من فونوغراف عتيق ..

قال لها وهو يقلب المفكرة :

- « فرويلاين (غادة) .. ما هى المشكلة بالضبط ؟ »

يعرف اسمها من دون سؤال ! هذا الرجل جدير بسمعته فعلاً !

قالت وهى تتنهد :

- « كوابيس .. »

قال بصوت مليء بالاهتمام :

- « جميل .. أنا أحب الأحلام وأعتبرها الطريق الملكى إلى اللاوعى .. إن اللا وعى موجود لكن هناك آلاف المفاتيح والجدران السميكة تحيط به كى لا يعرف أحد ما يدور هناك .. فقط ينكشف هذا اللا وعى فى لحظتين .. »

قالت فى نكاء :

- « التنويم المغناطيسى .. »

www.liilas.com

لم تدر أنها أثارت غيظه إلى هذا الحد ، إلا عندما ارتفع صوته يصرخ بالألمانية النازية :

ـ « هراء ! أنا جربت هذا لفترة مع البروفسور (شاركو Charcot) في فرنسا .. كان يؤمن أن التنويم المغناطيسي هو الحل .. ثم وجدت أن هذا غير صحيح .. اللا وعى لا يكشف عن نفسه إلا في لحظتين .. عندما تحلم .. وعندما نتكلم بلا قيود .. هذه هى طريقة تداعى الأفكار الحر .. »

ثم قال بنفس الهدوء السابق :

ـ « هل من شيء آخر ؟ فكرى .. »

قالت في خجل :

ـ « كوابيس تنتهى بـ .. بتبول لا إرادى .. »

ـ « جميل . جميل .. أحلام مبتلة .. هذا رائع .. أرجو أن تحكى لى الكابوس بالتفصيل .. »

ـ « في كل مرة أرى نفسى في ..... »

* * *

.....

* * *

ـ « ثم تأتى السقطة وأصحو صارخة .. »

فكر حينًا ونفث سحابة دخان كثيفة ، ثم قال :

ـ « وبعدها تجدين الفراش مبتلاً .. »

ـ « نعم .. لقد صارت هذه قاعدة .. »

ـ « هل من شيء آخر ؟ »

ـ « نعم .. البطيخ .. لقد رأيت البطيخة البيضاء مشقوقة إلى نصفين .. فجأة أصابنى هلع لا يوصف وفقدت وعيى .. »

فكر قليلاً ثم غمغم في عدم اقتناع ، وقال :

ـ « بطيخ .. هم م م .. في الواقع لم يكن البطيخ من مفردات التحليل النفسى المهمة .. ربما لأنه لا يوجد الكثير من البطيخ في (فيينا) .. أعتقد أن تحليل هذا الجزء قد يقتضى جهدًا كبيرًا ، لكنى سأجد الحل .. »

سألته في عصبية :

ـ « أى إنك لن تعطى التشخيص الآن ؟ »

ضحك ضحكة قصيرة ، وقال :

ـ « التحليل النفسى يا صغيرتى يحتاج إلى الكثير من الوقت والصبر .. سوف أسمع الكثير من الكلام الفارغ إلى أن يسمح لى لاوعيك بتلميح ما هنا أو هناك .. »

ثم أردف :

ـ « على كل حال ، يمكن القول إنني لا أتردد في تطبيق قوانين العصاب على نوبات الهيلة الليلية المصحوبة بهلاوس ونكوص وبعض الارتكاسات .. إذ أن زيادة الليبيدو لا تنتج عن الاطباعات العارضة وحدها ، بل تعتمد على موجات متعاقبة من العمليات التمخضية التلقائية ؛ لأن الرغبات الدفعة في الطفولة لا يستقر عنها في تكوينه. ولا يتعرض خيط من خيوط الفكر السوي لمعالجة نفسية غير سوية إلا إذا حولت له رغبة لا شعورية مكبوتة من الطفولة .. إن مركب (أوديب) يمكن ترجمته من الجهة الأخرى بتسمية غير موفقة تمامًا ، وهي (مركب الكترا) لكن المبدأ واحد ، وهذا ليس مرضًا نفسيًا قدر ما هو حالة من حالات النفس .. »

فرغ من الكلام . فسألته :

ـ « هل تتكلم العربية ؟ »

ـ « ما قلته كان بالألمانية .. »

ـ « ألمانية أو عربية . المهم أنني لا أفهم حرفًا .. لم أسمع سوى كلمة (افتكاسات) .. »

ـ « (ارتكاسات) .. على كل حال رأيك لا يهم .. المهم أنني أفهم يا صغيرة .. إن التحليل النفسي عملية معقدة وليس لعبة خواة يمارسها المدعون أمثال أدلر ويونج .. تصوري أن هذا الأخير كان تلميذًا لي ثم انشق علي وخالفني .. يا له من أحمق ! »

ويبدو أن عرقه الألماني قد تيقظ لأنه راح يرغي ويزبد ويفند الشتائم بالألمانية ، حتى حسبت نفسها في فيلم عن الحرب العالمية

الثانية .. ربما تدوي الطلقات النارية في أي وقت .. أختونج .. مانين كامف .. مانين فيورر .. فيج ميت شتالين .. دويتشلاند أوبر اليس .. طاخ طاخ بوم !

طمأنت نفسها أنه يهودي فلن يكون نازيًا أبدًا .. لقد بدأ يهدأ أخيرًا ثم نظر لساعته وأعلن أن وقت الجلسة قد انتهى .

في الخارج كان أبوها ينتظرها في قلق ، وسألها وهو يلتفت ليدها :

ـ « أين الروشتة ؟ هل نسيتها بالداخل ؟ »

يتوقع أن يجد روشتة زرقاء بها نوعان من الأقراص ونوع من الكبسولات ، يصرفها من عند الدكتور (إسكندر) وينتهي الأمر .. ليست الحياة بهذه البساطة ..

قالت له في انتصار :

ـ « لا توجد روشتة .. فقط المزيد من تداعي الأفكار الحر الذي قد يجد حلاً للعصاب الهستيري المقترن بالهيلة الليلية ذات الهلاوس .. »

ـ « هل تمزحين ؟ »

ـ « ربما .. لكن هذا ما قاله الدكتور .. »

هنا قالت الممرضة وهي تدون شيئًا في دفترها :

ـ « موعدنا الثلاثاء القادم .. السادسة مساء .. »

* * *

5 ـ عزيزى فرويد مرة أخرى ..

فى انتظار دخولهما إلى فرويد ، تبادل الأب ثرثرة طويلة مع الممرضة عن هذا الرجل .. كان ككل المرضى يريد أن يعرف ذلك الذى يعالج ابنته ، وقد دس فى يدها خمسة جنيهات لفك عقدة لسانها .. كل الممرضين صموتون متشككون قليلو الكلام إلى أن تلمس أناملهم قطعة العملة .. فحكت له الممرضة :

ـ « د. فرويد Freud قد ولد عام 1856 فى (مورافيا) .. إنها تتأرجح بين النمسا وتشيكوسلوفاكيا .. كان أبوه تاجر صوف يهوديًا وثق فى ذكاء ابنه وأعطاه خير فرص ممكنة للدراسة .. ثم كبر الصبى فانتقل للدراسة فى فيينا .. أخرج عام 1881 ليصير طبيب أمراض عصبية ونفسية ، وله أبحاث مهمة فى مرض الشلل المخي cerebral palsy .. ثم ارتحل إلى فرنسا ليدرس على يدو أستاذ الأمراض العصبية الأشهر (شاركو Charcot) ، بعد هنا اهتم بالأمراض النفسية حيث فكر فى استخدام التنويم المغناطيس فى العلاج .. وتتلمذ كثيرًا على أستاذ يدعى Bruer .. هنا بدا فرويد يكون نظريته الخاصة عن اللا وعى وقدرة التحليل النفس على إخراجه إلى السطح ، وكان رأيه أن معظم الأمراض النفسية ناجمة عن تجارب سيئة فى الطفولة . . »

نظرت (عبير) إلى أبيها ، وهمست :

ـ « مثقفة جدًا هذه الممرضة .. أشعر أنها زميلة فرويد فى محفل علمى .. »

قالت الممرضة التى سمعت التعليق بطبيعة الحال :

ـ « لا تنسى أن هذه فانتازيا يا عزيزتى .. لابد أن تعرفى خلفية ما يحدث هنا .. »

نظر الأب نظرة حادة إلى عبير لتخرس ، ثم طلب من الممرضة أن تكمل الكلام ، فقالت :

ـ « قبل فرويد كانت الفكرة المسيطرة على الطب النفسى هى أن المرء يسيطر بالكامل على ذاته ويعرف كل دهاليزها .. فرويد أدخل مفهوم اللاوعى .. كل شىء يحدث فى أعماق أعماق وعينا .. نحن لا نعى أكثره ولا نتحكم فيه .. هناك طبقات فوق طبقات تمنعنا من معرفة ما يدور هنالك .. على كل حال أغلب وأهم آراء فرويد موجود فى كتابه (تفسير الأحلام) الذى كتبه عام 1899 .. »

احمر وجه الأب كعرف الديك ، وقال فى حزم أبوى :

ـ « هذا كتاب بذىء .. كتاب فاضح ! لقد قرأته ! »

www.liilas.com

ـ « قرأت ما أخذه منه مؤلفون لا يهمهم إلا البيع .. إن الجنس عنصر مهم من عالم فرويد ، لكن هناك الكثير من الغث كذلك .. ما يحدث هو أن أى مترجم يأخذ الجنس والإثارة فقط ويحشو به كتابًا رخيصًا يباع على الأرصفة ، ويطلق على الكتاب (تفسير أحلام فرويد) .. هذا أساء لسمعة فرويد بحق .. بالنسبة لكثيرين هو مجرد كاتب جنسى رخيص بذىء .. »

تذكرت (عبير) تعبيرًا سمعته فى مكان ما : لقد صنع فرويد قنابل عالية التفجير ليحفر بها أنفاقًا فى الذات البشرية ، فأخذها الناس وصنعوا منها (بمب) وألعابًا نارية يتسلون بها ..

قال الأب فى حماس :

ـ « ثم إنه يهودى ! »

قالت الممرضة :

ـ « فى هذا أنت محق .. معظم الأطباء النفسيين الرواد كانوا يهودًا ، لهذا تشكك النازيون فى علم النفس واعتبروه (علمًا يهوديًا) . ولهذا أحرقوا أغلب كتب فرويد ، ولو بقى فى النمسا لأحرقوه بدوره ، لكنه فر إلى لندن قبل الحرب العالمية الثانية .. إلا أن فرويد لم يكن يهوديًا متدينًا ، دعك من أن أكثر معارضيه ومن اتهموه بأنه مقل يهود بدورهم .. وعلى كل حال معظم علماء الفيزياء النووية يهود كذلك ، فهل ترفض علم الفيزياء النووية برمته ؟ »

هز الأب رأسه وبدا أنه غير مقتنع لكنه آثر الصمت ..

عادت الممرضة تواصل السيرة الذاتية لفرويد :

ـ « فى اللا وعى تكمن كل خواطرنا وذكرياتنا الأليمة أو المشينة .. نعتقد أننا نسينا لكن لا شىء ينسى فى العقل الباطن .. لقد بحث الدكتور كثيرًا فى الأساطير الشعبية .. وبحث فى نشأة الأديان ومفهوم التابوو والطوطم .. كل هذا كى يفهم .. وكان رأيه أن عقدة أوديب (Oedipus complex) تسيطر على وجداننا منذ الطفولة .. الطفل يحب أمه ومرتبط بها ، بينما يعتبر الأب دخيلاً وعدوًا .. هذا النشاط يصل لذروته عند سن خمسة أعوام ثم يهبط .. دعك من حسد الطفلة لأخيها لأنه يملك صفات الذكورة ، بينما يخشى الطفل أن يفقد هذه الصفات فى ظروف غامضة بما أن أخته فقدتها و ... »

ـ « المريضة !! »

جاء الصوت من داخل غرفة الكشف فقاطع هذه المحاضرة العلمية .. قالت الممرضة فى لهفة :

ـ « هيا .. ولكن أرجوك لا تقولى إننى كلمتك عن أى شىء .. »

* * *

فى الداخل كان دخان الغليون والظلام ينتظرانها كالعادة ..

وتساءلت (عبير) عن مصدر دخل هذا الرجل ما دام لا يبدو أنه يتعامل مع أى مريض سواها .. لهذا ليس التحليل النفسى رائجا .. الطبيب يقضى مع المريض ساعات طويلة كان يمكنه خلالها أن يرى عشرات المرضى لو لجأ للطريقة العادية بدلا من التحليل النفسى .. لو تعاملنا بمبدأ الجدوى الاقتصادية فهذا مشروع فاشل .. لكن فرويد لم يكن يبحث عن المال .. لو أردنا الدقة لقلنا إنه لم يبحث عن علاج المرضى كذلك ، قدر ما كان يبحث عن المعرفة التى لا تقدر بمال ..

طلب منها أن تتمدد على الأريكة كالعادة وجلس فى الظلام يدخن .. الحقيقة أنها بدأت تعتاده وتعلمت كيف تسترخى .. فى البداية تجد صعوبة شديدة فى أن تنام مسترخية أمام شخص غريب ، دعك من أن يكون هذا الرجل فرويد نفسه ، لكنها تعلمت مع الوقت كيف يسترخى جسدها وتسترخى روحها .. إنها تتكلم كأنها تكلم نفسها فى المطبخ ..

سألها بصوته العميق :

ـ « هل من مزيد من الكوابيس ؟ »

ـ « الكثير منها .. لقد صارت عادة .. »

ـ « سأكون شاكرًا لك لو أعدت سرد الكابوس من جديد .. إن اختلاف الكلمات يساعدنى .. دعك من تركيزك على نقاط بعينها .. هذا مهم .. »

تنهدت فى ملل .. يبدو أنها حكت هذا الكابوس خمسين مرة حتى الآن ..

سألته :

ـ « هل من نزيف .. أقصد هل من بصيص ضوء ؟ »

هنا سمعت صوته المتنبه الذى يشعرها بأن عينيه تضيئان فى الظلام ، يقول :

ـ « لماذا قلت (نزيف) ؟ »

قالت فى ارتباك :

ـ « عثرة لسان لا أكثر .. هذه الأمور تحدث .. »

ـ « أنا لا أعتقد أن عثرات اللسان صدفة .. هذه من اللحظات التى يعبر فيها العقل الباطن عن نفسه برغم الرقابة العاتية .. »

ثم أطلق سحابة دخان كثيفة ، وقال :

ـ « أنت تعرفين أن الحلم يلجأ إلى الترميز مثله مثل الشعر .. حلمك يعج بالثعابين ، وهى رمز رجولى قوى .. هناك رائحة سمك .. السمك والعين رمزان أنثويان قويان جدًا .. تذكرت أبيك فجأة

وطلبت عونه .. هنا يبدو مركب أليكترا بشكل واضح .. إن أبًا قادر على إنقاذك لكنه (هناك في الجانب الآخر من البيت) مع أمك .. المنافس .. لكنك تحدثت عن خالك الذي يكره أغاني أم كلثوم .. هذا لغز واضح .. ما الذي أقحمه في هذا التداعي الحر للأفكار ؟ »

- « ربما لأن خالي يكره أغاني أم كلثوم فعلاً .. »

- « وما الذي جاء بسيرة أم كلثوم هنا ؟ وما دور البطيخ؟ هذا هو ما أتوقع أن أعرفه وأستخرجه من عقلك الباطن .. لقد وجد التبيدو الخاص بك متنفسًا في التبول غير الإرادي ، لذا يقحم نفسه في صورة واحد من أحلام جرس المنبه ، حيث يتلقى حلم كامل وبأثر رجعي من أجل لحظة نهايته .. البلل في نهاية الحلم هو مبرر وجود مواسير الماء في بدايته .. »

قالت في غيظ :

- « لو كنت تعتقد أنني أغار من أمي لأنني معجبة بأبي ، وربما أحب خالي كذلك لأنه يشتري لنا البطيخ . فأنت مخبول تمامًا .. »

- « هكذا يقولون دومًا .. أنت لن تستطيعي أن توجهي لي إهانات أكثر مما وجهه لي زملائي عندما أذعت نظريتي .. فلم تنسى أفسدت كل شيء في الحياة .. شوهت علاقة الأم وابنها وشوهت حبنا لأقاربنا ، وشوهت حزننا على من مات .. حتى الضحك على النكات وحب الوطن شوهته .. صدقيني لقد سمعت

ما هو أسوأ .. هناك أطباء ألمان محترمون يصفقوا على الأرض عندما مررت بهم .. »

- « وكانوا على حق .. »

- « ربما .. لكن هذا ليس موضوعنا .. و ... معذرة .. »

وفجأة نهض واتجه إلى ركن القاعة .. نهضت مستندة على كوعها لترى ما يفعله فوجدته قد أوقد مصباحًا وفتح فمه وراح يتفحصه في مرآة صغيرة على الجدار .. ما معنى هذا ؟ كانت كالعادة تعتقد أن الأطباء النفسيين ليسوا على ما يرام غالبًا ، لذا بدت لها هذه اللمسة تبشر بالكثير من الخير .. لن تتأخر كثيرًا لحظة وضع الكسرولة على الرأس ..

لكنه تفحص فمه قليلاً ودس إصبعه فيه ، ثم عاد لرجلس ، وقال :

- « سرطان الفم من جديد ! لقد عاد .. شعرت بهذا التورم وأنا آكلك الآن .. برغم كل الجراحات التي أجريتها .. لقد سببه لي تدخين السيجار المفرط .. ولهذا اتجهت إلى الغليون .. »

- « هذا مؤسف .. لكن الغليون ليس أكثر أمنًا .. »

- « لابد لي من أن أدخن شيئًا ما وإلا جننت .. تصوري إن سقف فمي من النحاس وليس من العظم ؟ لكن هذا ليس كافيًا .. لقد تحملت هذا المرض كثيرًا حتى عام 1939 عندما طلبت من طبيبي

www.liilas.com

المعالج أن يريحنى من عذاب لا ينتهى .. هكذا قام بحقنى بجرعة مضاعفة من المورفين وتنتهى الأمر .. على كل حال .. ما علينا ..»

كانت هذه فانتازيا حيث يمكن أن يتكلم المرء عن ظروف وفاته وما تلاها .. هذا شىء معتاد وطبيعى جدًا هنا ..

أطفأ المصباح وعاد لها ثم فتح المفكرة ، وقال :

ـ « تكلمى عن أى شىء يروق لك .. »

* * *

فى ذلك اليوم كنت ألعب مع (سحر) و(هدى) فى الشارع .. كنت فى الحادية عشرة من عمرى .. الحر الشديد .. بابا يعود من العمل حاملاً بطيخة .. يطلب منى ألا أتأخر ثم يدخل مدخل البناية .. أعرق يبلل صلعته ووجهه وإبطيه ..

الحر الشديد .. إنه يونيو .. بداية الصيف .. الشعور بأن الإجازة بدأت لتوها وأنت لا تعرف ما تفعله بنفسك .. (سحر) لطيفة وشقية .. (هدى) حازمة قليلة الضحك تبدو مثل أمى .. فستان أبيض مريح يوحى بانتعاش الصيف .. قصير الكمين .. صندل .. لكن الصندل زلق بفعل العرق ، لهذا أفضل اللعب حافية ..

نتقاذف الكرة .. البواب يصغى للراديو .. يطلب منا ألا نبتعد .. هناك قط مشمشى اللون يرمقنا فى كسل من تحت سيارة .. سيارة فيات بيضاء .. يغمز بعينه ثم يتوارى فى الظل ..

بائع آيس كريم يمر منهكًا وقد لوح الحر بشرته .. الرسوم الساذج على السيارة لها طابع فرعونى لكنه متخشب ، ومن الغريب أن المصرى بحسه الشعبى يرسم كما رسم الفرعونى القديم .. المقطع جانبى للوجه لكن العين فى مسقط أمامى تبدو كالسمكة بالضبط ..

يبدو الآيس كريم مغريًا لكن أبى لن يسمح لى بشرائه ، لأنه ملوث بالتيفود .. حسب كلام أبى ، هذا الرجل يقوم بشراء بكتريا التيفود من المعامل ويضيف لها السكر واللبن ثم يجمدها ويبيعها ..

ربما لو طلبت من خالى شراء بعضه لى .. لكن لا .. خالى يكرهنى بشدة ولن ينفذ لى هذا الطلب ..

الكرة تبتعد .. تصطدم بالجدار .. أركض لأحضرها .. لكن .. ماذا حدث لى ؟؟ لقد جرحت .. لقد جرحت ! عينى تنزف دمًا لا أدرى كيف ولا متى .. لا أكلم صديقتى الصغيرتين ..

أجرى إلى البيت ..

البطيخة على المائدة .. أهرع إلى غرفة النوم ، وأتوارى وأبكى .. لا أريد أن يرانى أحد .. لا أريد أن تعرف أمى .. إننى أبكى .. الدم يتساقط والرعب يفعمنى ..

هل أنا أموت ؟ هل سأكون عمياء بقية حياتى ؟

إننى .. ..

لا !!!!!!!!!!

* * *

عبير وعبير وعبير

(مسرحية من فصل واحد)

(إضاءة المسرح خافتة جدًا ، والديكور بسيط أقرب إلى التجريدية .. لا بأس من جدران هنا وهناك مع بعض الرموز الفرويدية المعلقة .. ربما يفضل مهندس الديكور وضع طوطم صغير فى خلفية المسرح ليذكرنا بكتاب فرويد الشهير (الطوطم والتابو) هناك أريكة أيضًا .. لا يمكن الكلام عن فرويد من دون أريكة هناك موسيقا مخيفة كأنها من الأدغال تذكرنا بظلمات النفس المفترض أن هذا هو عقل عبير ، لهذا يمكن لمهندس الديكور أن يجعل شكل المسرح الكلى أقرب إلى تعاريج المخ) ..

الشخصيات :

عبير (هى ID) : فتاة مائعة تلبس ثيابًا خليعة ولها ضحكة مدوية تثير القشعريرة

عبير (أنا Ego) : فتاة عاقلة تلبس ثيابًا محترمة .. أقرب إلى الاتزان ..

عبير (أنا عليا Super Ego) : فتاة حكيمة وقور تتحدث بلغة أسطورى لا يمت للواقع بصلة .. ثيابها كثياب الملقبات أو الراهبات ولها نظرات حالمة تتطلع إلى أعلى طيلة الوقت ..

تدخل (عبير هى) متمايلة مترنحة ممسكة بكأس .. تضحك فى ميوعة ثم تجلس على الأرض مواجهة لجمهور المسرح)

عبير هى : حر .. حر شديد .. لماذا لا يحق لنا أن نمشى من دون ثياب ؟ لهذا يشعر الرضع بالسعادة .. لأنهم غير مقيدين بالثياب ..

تدخل (عبير أنا عليا) ممسكة بكتاب وهى منهمكة فى القراءة .. تلتفت فى احتقار إلى (عبير هى) وتهز رأسها ..

عبير أنا عليا : الحيوانات كذلك سعيدة لأنها عارية .. لكن لابد من شىء يميز بيننا وبينها .. كل هذه القرون من التحضر لابد أن يكون لها معنى ما .. لو كان جل حلمنا هو التشبه بالرضع أو الحيوانات فعلى البشرية السلام ..

عبير هى : الهدف الوحيد للحياة هو اللذة .. كم أتمنى أن تصيرى على طبيعتك وتكفى عن ارتداء عباءة الفلاسفة ومسوح الرهبان .. أنت منافية للطبيعة ..

عبير أنا عليا : وأنت عبارة عن طفل .. طفل لم يتعلم التهذيب ..

عبير هى : ومن قال العكس ؟ *(تضحك فى مجون)* .. فرويد وصفنى فقال إننى عبارة عن طفل ولد تتوه ولم يتعلم أى شىء .. إننى شهوات بلا رقيب .. شهوة الطعام وشهوة الجنس .. الأنانية المطلقة .. انتصار الحيوانية .. السيطرة لمراكز

العقل السفلى .. بالمناسبة *(تنظر إلى الجمهور)* هناك شاب وسيم فى الصف الثالث ! أشعر بأنى وقعت فى الحب ! هل هناك شىء فى العالم أروع من رجل جميل ؟

عبير أنا عليا : نعم .. عقل جميل .. أخلاق جميلة ..

عبيرهى : أنت لست امرأة .. أشعر بأنك مزيج من فيلسوف ورجل دين ومفكر ومصلح اجتماعى .. ضمير يمشى على قدمين ..

عبير أنا عليا : أنا كذلك فعلاً .. فرويد قال إننى أمثل أسمى ما وصل له الضمير البشرى .. لقد تكونت عندى تعلمت (عبير) الكبيرة أن تقرأ قصص الأبطال والشعر وتسمع المواعظ الدينية .. إننى أسمو بنفسه .. ومهمتى أن أراقبك وأوبخك .. ليس هذا فحسب .. إننى أراقب أحلامك أيضاً وأمنعها من أن تكون صريحة .. كل ما هو محرم فى الحلم أقوم بتحويله إلى رمز ..

عبيرهى : ربما تتحسن مشاكلك النفسية لو تناولت جرعة من هذا الشراب ..

عبير أنا عليا : أنا لا أشرب هذا (الهباب) .. لقد توضأت استعداداً للصلاة ..

عبيرهى : صلاة ؟ *(تضحك)* .. يبدو أننا لن نتفق أبداً .. اسمعى .. هناك صديقة لى قد تركت معى ألفى جنيه .. سوف تأتى لتطلبها غداً .. هل تعرفين ما سيحدث ؟ سأنفى أننى أخذت منها أى شىء ..

عبير أنا عليا : إذا ازدمن خان .. هذه من آيات المنافق الثلاث ..

عبيرهى : ربما كنت منافقة ، لكنى كذلك أحقق الهدف من وجودى . الحصول على كل شىء بلا ثمن .. هذا هو الهدف الأسمى لى .. على كل حال لا يشكل المال بالنسبة لى كل شىء .. هناك اللبيدو Libido .. الطاقة الشهوانية المحركة للوجود .. هذا من تعبيرات فرويد .. أنا غريزة الحياة . الإيروس Eros .

عبير أنا عليا : لا تنسى أن هناك غريزة فناء ذاتى أو موت لدى كل البشر .. الثناتوس .. كل الناس تريد أن تموت وتسكن ..

عبيرهى : دعك من هذا .. الحقيقة أننى لم أعد أطيقك !

عبير أنا عليا : هلمى أيتها المستهترة .. جربى أن تذوقى قبضتى ..

تدور الفتاتان حول بعضهما ثم تلتحمان فى صراع شرس تسيل بشعار القطط .. فقط ينتهى هذا لدى الدخول المتعجل لـ (عبير أنا) ..

www.liilas.com

عبيـــرانا :يا ساتر ! لا أستطيع أن أتركك فى سلام أبدًا !

عبيـــرهى : هذه الفتاة تعتبر نفسها الشهيدة والقديسة والمعلمة بصراحة لم أعد أطيقها ..

عبيرانا عليا :أما هذه المستهترة فمجموعة شهوات تمشى على قدمين ..

عبيـــرانا :ومن قال العكس ؟ كل واحدة فيكما تفعل بالضبط ما هو مفترض منها .. لكن هناك مشكلة خطيرة .. صراعك يعذب (عبير) الكبيرة فعلاً .. إنها الآن تعانى الصداع والتوتر النفسى والاكتئاب والشعور بالذنب .. أنتما تعرفان التوازن الدقيق الذى نمثله .. (عبير هى) تمثل الدوافع الجنسية ، بينما أنا أمثل غريزة حفظ الذات أنا الوسيط بين رغبات (عبير هى) الجامحة المخيفة وواجبات العالم الخارجى .. عندما تكون الغلبة لـ (عبير هى) يبدأ عصاب التحويل من طراز الهستيريا والوسواس .. عندما تكون الغلبة لى يبدأ العصاب الترجسى .. (عبير هى) طفل يريد كل شىء لنفسه .. مثلاً هى تتمنى لو سرقت المصرف ..

عبيـــرهى : فكرة رائعة لم تخطر لى ببال ! يجب أن أجرب هذا غدًا ! لن يتصور أحد أن فتاة رقيقة تحمل مسدسًا وتهدد الصراف ..

عبيـــرانا :فكرة غبية .. المجتمع لن يسمح بذلك .. سوف يحملونك إلى قسم الشرطة حيث يصفعك مخبران على قفاك الجميل ..

عبيـــرهى :إذن لا داعى للسرقة .. سألزع ثيابى أمام الكاميرا وأضع صورى هذه على الإنترنت .. كم هى فكرة مثيرة أن يراني الشباب جميعًا فى هذه الصورة ..

عبيـــرانا :هذا هو الجنون بعينه .. سوف تتلقين الصفعات على قفاك من مخبر فى شرطة الآداب هذه المرة ..

عبيرانا عليا :ولماذا تهددينها بالشرطة ؟ لماذا لا تمتنع عن الفعل لأنه عيب وحرام ؟

عبيـــرانا :هى لن تفهم هذه الأمور .. كل ما يهمها الحفاظ على كيانها .. أى إنها سوف تمتنع عن كل ما يدمرها أو يقتلها .. أما الكلام عن المثل العليا فشىء لا تفهمه ..

عبيـــرهى :لعلا أنا لا أفهم دورك .. هل كل ما تفعلينه هو إصلاح المشاجرات بينى وهذه القديسة ؟

عبيـــرانا :فعلاً .. هذا هو دورى .. أنا الحكم بينكما .. كما أننى أحرك ميكانيزمات الدفاع للتوفيق بينكما .. يجب أن نقبل طبيعتنا .. يجب أن تفهم (عبير أنا عليا) أن (عبير هى) لا تستطيع إلا أن تكون شهوانية شرهة

أنانية .. يجب على (عبير هى) أن تعرف أن (عبير أنا عليا) لا تستطيع إلا أن تكون ضميراً .. هذا تهدأ الأمور .. *(تنظر لهما وتبتسم)* .. هيه .. صدقت يا لبن ؟

عبيـــر هى :حليب يا قشطة ! *(ترقص فى مرح)* ..

عبير انا عليا :سأحاول أن أتسامح مع تلك المستهترة .. سوف أفترض أنها مجرد طفل كما تقولين .. لا أعرف كيف سأتحملها لكن سأحاول ..

عبيـــر هى :إذن نرقص رقصة ساخنة معًا !

عبيـــر انا :بل تستترين جسدك وتتوضئين ونصلى صلاة شكر لله

يخرجن من المسرح متعانقات .

ستار

* * *

6- لم أعد أتحمل ..

كانت تبكى .. فجأة هى تتذكر تفاصيل كل شىء .. تتذكر رعبها وتبكى .. تصرخ فى فرويد وتلومه وتطلب منه الأشياء التى كانت تطلبها وهى طفلة مذعورة :

- « ألا ترى الدم يا أحمق ؟ ساعدنى ! لا تناد أمى ! »

سمعت فرويد يقول فى الظلام :

- « هذا هو مبدأ التحويل Transference .. جميل .. جميل .. أنت تكررين فى الحاضر ما كنت تفعلين فى الماضى مع شخص لا علاقة له بطفولتك .. غالبًا ما نحول عاطفتنا نحو والدينا أو مايسمونه بالـ dyad باتجاه أزواجنا .. كثيرًا ما يتم التحويل نحو المحلل النفسى وهذا مفيد .. هناك مثلاً الرجل الذى عذبته أمه فى طفولته . من ثم كبر ليكره كل النساء ويعذبهن .. السبب أنه قام بالتحويل .. والآن أريد منك أن تهدئى .. »

هدأت نوعًا لكنها ظلت ترتجف وتبكى فى صوت خفيض ..

لا تذكر سوى عينيه تشعان فى ظلام الغرفة وهو يقول بلهجته الألمانية :

- « هناك بطيخة يحملها أبوك .. هناك فستان أبيض وسيارة فيات بيضاء .. تذكرى البطيخة بيضاء القلب التى سقطت مغشيًا عليك لدى رؤيتها .. هناك قدمان حافيتان .. مفردات الحلم تتكرر .. لاحظى أن القدم الحافية رمز ذكرى قوى .. البواب يصغى للراديو .. هل تسمعين الأغنية فى الراديو ؟ هل تميزينها ؟ »

إنها بالفعل تسمعها بوضوح .. « أغذا ألقاك ؟ يا خوف فؤادى من غدى .. »

- « إنها أم كلثوم .. تكلمى .. هى ذات الأغنية التى تسمعينها فى الحلم .. أليس كذلك ؟ »

- « بلى .. ولكن .. »

لكنه كان مصرًا بلا رحمة .. يواصل الكلام :

- « هناك أكثر من عين .. الرمز الأنثوى الأقوى .. قط يفرز بعينه .. عين فرعونية على عربة الآيس كريم .. عينك تنزف .. العين لا تنزف فجأة هكذا .. تهربين من صديقاتك .. تتوارين فى البيت خجلا .. لا يجب أن تتركك أمك .. لماذا لا يجب أن تتركك أمك ؟ لماذا ؟ »

تقول وهى تغطى فمها :

- « لا أعرف .. لا أعرف ! »

- « هناك كذبة عثرة اللسان عندما قلت (هل من نزيف ضوء) .. ما حدث لك وقتها هو تغير فسيولوجى طبيعى يمر بالفتيات لدى البلوغ .. حدث فجأة وأنت تلعبين مع صاحباتك ، ورأيت قطرات الدم . أصابك ذعر لا يصدق لأنك حسبت أنك تموتين أو أن هناك خطأ ما .. الموقف هكذا دائما .. لكن الرعب أدى لميكانزم دفاعى فى عقلك الباطن .. الذكرى التى بقيت لك من هذا الموقف هو أن عينك كانت تنزف .. »

صاحت فى رعب :

- « لا .. لا يا أبى .. أنا لم أفعل شيئًا ! »

قال فى رضا :

- « المزيد من التحويل .. وأنا أبوك وأقول لك إنك ابنتى وأنى أثق بك .. »

- « لم أفعل شيئًا ! »

- « وأنا أصدقك ! إن أى اضطراب نفسى هو فى الحقيقة اضطراب لوظيفة الجنسية للفرد .. لو قرأت كتابى (ثلاث نظريات فى الجنس) لفهمت ما أقول .. »

www.liilas.com

الحقيقة أن هذا صحيح .. لدرجة أنه فسر نشوء الدين كله بهذا (أوديب) لدى الإنسان الأول .. وفى كتاب (موسى والتوحيد) حاول أن يجمع بين الهجوم على الدين اليهودى والدفاع عنه ..

انفجرت (عبير) فى البكاء من جديد ، فقال الطبيب اليهودى صارم العينين :

- « إن المادة التى يتم استرجاعها بالتحليل النفسى كريهة مقززة لدى المريض ؛ لذا يكون انفعاله مثل انفعالك الحالى : البكاء .. لقد يفسر الكثير عن ذلك الكابوس الذى ترينه .. إنه ببساطة هو الموقف وإن تنكر فى لغة الحلم الرمزية .. إن الحلم هو حارس النوم ، ومهمته أن يطلق التوترات التى فى أعماقك ويريحها .. لكن حتى فى لحظات كتلك تظل الأنا العليا تراقب فى صرامة .. هكذا يضطر الحلم إلى استخدام لغة الترميز لينفلت من هذا الرقيب الصارم المتدين .. على كل حال قد بدأ الأمر يتضح .. البطيخة ما لها معنى ما .. ربما كنت مخطئا وكانت مجرد (فوبيا phobia) .. الفوبيا هى المخاوف التى لا تخضع للمنطق ولا يتناسب حجم الاستجابة لها مع موضوع الخوف .. التفسير الحالى يقول إن البطيخة ارتبطت بخبرة مروعة فى الطفولة ؛ هكذا ظلت رؤيتك تستعيد هذه الخبرة ، والتفسير الثانى يقوم على إحلال خوفك من

رغبتك المحرمة مكان البطيخة .. هكذا تخافين من البطيخ بدلاً من خوفك من رغباتك المحرمة .. هذا تفاعل شهير فى تكوين الفوبيا .. أحيانا نخاف الأماكن المرتفعة أو الظلام لأننا نخاف فى الحقيقة أن نعترف بكراهية الأب .. فى حالتك تخافين الاعتراف بنواح مؤلمة جدًا من نفسك لهذا تفضلين أن تخافى البطيخ .. »

وحك لحيته فى رضا وقد بدا كأنه (شيرلوك هولمز) فى نهاية رواية من رواياته عندما يفسر كل شىء ، وأردف :

- « ولكن هناك مقطعًا لم أفهمه من كلامك .. قلت إن خالك لابحب أم كلثوم .. ثم قلت الآن : خالى يكرهنى بشدة ولن ينفذ لى هذا الطلب .. لماذا ؟ »

- « لا أعرف .. »

نفث سحابة كثيفة من الدخان ، وقال :

- « لأنك متعلقة بخالك بشدة .. ربما أكثر من اللازم .. الأنا العليا لا تسمح لهذا التعلق بأن يتجاوز مداه ؛ لذا يظهر ميكانيزم دفاع آخر اسمه (الإسقاط projection) .. إما أن تعتقدى إن صديقتك تحب خالك بشدة ، وإما أن تعتقدى أن خالك يكرهك بشدة .. »

- « لا أفهم حرفًا .. »

ـ « لكنى أفهم وهذا هو المهم .. (غادة) .. هناك مستقبل فى أعماق نفسك وقد بدأنا نكشف الغطاء عنه .. »

ثم فرك يديه فى مرح ، وقال :

ـ « هناك الطفلة جوار البئر . هذا جزء لابد من لبها بوضوح .. هذا موضوع جلستنا التالية .. والآن .. »

قبل أن يفهم ما يحدث كانت قد وثبت من على الأريكة وجرت خارجة إلى أبيها ..

ارتمت بين ذراعيه باكية وهو يبتسم غير فاهم ما دهاها ..

قالت له وهى تمسح أنفها فى بذلته :

ـ « هذا الرجل مجنون .. إنه .. إنه مريض .. كل شىء فى عالمه هو الجنس .. تفسير كل شىء .. يتخيل أننا مجموعة من الوحوش تدارى حقيقتنا حتى عن أنفسنا .. إنه يجعل الحياة جحيماً .. »

لم يفهم الأب .. فقط استخلص من كلامها أن (فرويد) عبث وقح قليل الأدب ، وخلع حذاءه مصراً على الدخول ليؤدبه ، لكنها استوقفته :

ـ « لا .. إنه مهذب جداً .. لكن عقله مريض ومنطقه معوج ... »

ثم قالت فى تصميم :

ـ « أبى .. لن أعود هنا مرة أخرى .. لنجرب طبيباً آخر .. »

* * *

هى فى حقل .. تعرفه جيداً .. إنها طفلة فى الثالثة أو الرابعة ..

تركض فى الحقل .. تطارد اليعاسيب التى لم تكن تعرف أنها كذلك ..

هناك من يصرخ .. صرخات رفيعة جداً من خلفها ..

تنظر إلى الخلف للحظة ثم تواصل الركض ومطاردة اليعاسيب ..

فجأة توقفت الصرخات ..

* * *

هو التوفيق الإلهى الذى جعل الأب يمشى فى الشارع المجاور عصر ذلك اليوم القائظ .. كان يشتهى البطيخ ، لكن النكوص والارتكاس لدى (غادة) مع كل مركبات (ألكترا) وتثبيت الليبيدو والتحويل والإسقاط والتساهى ، كل هذا جعله يخاف البطيخ كالموت ذاته ..

قال لنفسه :

- « صيف من غير بطيخ تضحية هينة مقابل أن تحتفظ ابنتى بعقلها .. »

المهم ألا تكون مصابة بفوبيا ما تتعلق بالخوخ والمانجو هذا يجعل الحياة قاسية فعلاً ..

هنا وجد أنه يقف عند مدخل عمارة يهب منه هواء رطب منعش لكنه غير محبب الرائحة .. وعلى باب البناية رأى لافتة صغيرة بحجم هذا الكتيب ، عليها :

ألفريد أدلر
محلل نفسى

قال لنفسه وهو يجفف عرقه :

- « ما شاء الله .. المحللون النفسيون صاروا كحبات الليمون هذه الأيام .. اسم (أدلر) موح على كل حال . له رنين (أفخر التفاصيل) فى اللغة العربية .. هذا الرجل أدلر من زميله .. معى هذا أنه أفضل على الأرجح .. أعتقد أننى سأجربه .. »

هكذا جرى إلى البيت وجلب (عبير) من يدها قبل أن تفرغ من استبدال ثيابها بالكامل .. صاحت محتجة :

- « من هو هذا الـ (أدلر) ؟ لم أسمع عنه من قبل .. »

- « ولا أنا .. لكن اسمه موح بالجودة .. إنه أدلر من غيره .. بشىء من التوفيق يمكن أن يكون هو الأدلر على الإطلاق .. »

سرعان ما كانا يدخلان العيادة التى تحمل ذات الطابع العتيق .. لكن الممرضة كانت ممرضًا عجوزًا هذه المرة .. وكانت هناك رائحة سيجار قوية جدًا تزكم الأنوف .. يبدو أن التحليل النفسى لا يجوز من دون سرطان .. سرطان رئة أو لسان أو مثانة يسببها السجائر أو الفيون أو السيجار بالترتيب .. قال لهما الممرض :

- « أحسنتما إذ جئتما هنا .. إن د. أدلر هو أفضل محلل نفسانى فى البلاد .. فى العالم كله .. »

قال الأب ضاحكًا :

- « قالوا من يشهد للعروس .. »

لكن الممرض لم يضحك ، وأخذ ثمن الكشف فى حزم وعد المال مرة ومرتين ، ثم أشار لهما كى يدخلا غرفة الكشف ..

بعد لحظة وجدت (عبير) نفسها واقفة أمام الدكتور (ألفرد أدلر) ..

* * *

www.liilas.com

7 ـ الرجل (الأدلر) من سواه

لم يكن أدلر Adler مهيبًا عظيم المنظر مثل فرويد .. كان أقرب إلى البدانة ، وله شارب (هتلرى) مضحك وعينان جاحظتان زرقاوان تتواريان خلف عوينات شفافة .. كان أقرب إلى جنرال نازى منه إلى طبيب ، وقد ذكرها فعلاً بالصورة المعتادة لهملر Hemler المخيف قائد الجستابو لدى هتلر ..

الغرفة نفسها كانت متمقة أنيقة ليس لها ذات الطابع الفخم المغبر الخاص بغرفة فرويد ..

الإضاءة كانت ساطعة .. هنا المكان ليس مناسبًا لوحوش النفس كى تخرج ، بل هو مخصص لإلقاء نظرة فاحصة دقيقة على المريض .. كأنها غرفة فحص لدى طبيب باطنى حيث الظلام لايليق ..

سألها وهو ينظر لقدمها نظرة فاحصة :

ـ « لماذا تعرجين ؟ هل هناك مشكلة فى ساقك ؟ هل هو شلل أطفال ؟ »

نظرت لساقها ، ثم قالت :

ـ « لم أعرج .. ربما هو الحذاء الضيق .. أو هو التردد والتهيب .. »

قالت فيما مضى قد سمعت طبيبًا يقول : لو لم يدخل المريض على طبيبه فى شىء من التهيب والخوف ، فهو لن يشفى .. يجب أن يشعر برهبة كأنه يدخل للكاهن الأكبر وبهذا يصدق كل شىء ويؤمن بالعلاج ..

لكن أدلر كان يتصرف كضابط مباحث مشاكس :

ـ « ولماذا التهيب ؟ هل هناك ما يقلقك ؟ »

ـ « كل مريض يشعر بتهيب عندما يدخل للطبيب النفسى .. ولم أشعر بتهيب لاحتجت إلى طبيب نفسى ! »

ـ « لاحظت أنك تنطقين الهاء بطريقة غريبة .. هل هناك سبب ما ؟ هل هذا عيب فى نطقك منذ الطفولة ؟ »

ـ « لم أنطق الهاء بطريقة غريبة .. »

ـ « خيل لى أنك تنطقين الهاء بطريقة غريبة .. »

ـ « لكن الأمر ليس كذلك .. »

ـ « حسبته كذلك .. »

هنا كان صبر الأب قد نفد . فانفجر صارخًا :

ـ « أن تطلب منا الجلوس بدلاً من استكمال تحقيق المباحث هذا ؟ »

قال أدلر :

ـ « هذا صحيح .. لكنى أطلب منك أن أكلمها على انفراد لو سمحت .. »

شعر الأب باليأس .. لا يوجد مكان فى هذا العالم يسمح له فيه أن يكون مع ابنته .. هكذا ألقى على أدلر نظرة نارية ثم خرج ليجلس مع الممرض ..

* * *

فيما بعد عرفت أن الأب جلس مع الممرض يستنطقه عن المدعو أدلر .. قدم له لفافة تبغ ، وسأله :

ـ « هل كل هؤلاء المجانين ؟ »

صاح الممرض فى كبرياء كأنه أهين :

ـ « لا .. الدكتور نعساوى .. »

ـ « إذن هو صديق فرويد .. »

ـ « بل عدوه اللدود ! كانا صديقين فى العام 1902 ثم نشب بينهما الخلاف بعدها بعشر سنوات .. فرويد يعتقد أن الجنس هو محور كل شىء فى العالم .. متشائم وقذر الأفكار .. د. أدلر يؤمن بفلسفة نيتشه عن الإنسان السوبرمان .. وقد عاد

لنيرته أوروبا .. ثم اضطر إلى الهجرة إلى الولايات المتحدة عندما تولى النازيون السلطة ، وعاش يحاضر هناك وحول العالم إلى أن توفى فى أسكتلندا عام 1937 .. الحقيقة أن موته المبكر نسبيًا أدى لتراجع مذهبه فى التحليل النفسى بسرعة ، وهى طبيعة غريبة .. لكى تترك تأثيرًا فى أى مجال يجب أن تعيش طويلاً جدًا .. عند الناس لا فارق بين العالم الكبير سنًا والكبير علمًا .. كله (عالم كبير) .. »

حكى له الممرض المثقف كيف أن أفكار أدلر تكونت من نيتشه والفيلسوف الألمانى (فايْنجر Vaihinger) الذى ابتكر فلسفة (كما لو أن As if) التى تحاول أن تتعايش مع العالم بأن تتخيله فى صورة أفضل ..

كتاب (تفسير الأحلام) الخاص بـ (أدلر) ـ أى الكتاب الذى يشرح كل نظرياته ـ هو كتاب (الشخصية العصابية) الذى صدر عام 1912 .. محور فلسفته هو أن كل إنسان يتحرك بشكل تلقائى (على) من أجل الشعور بالتفوق .. أن ينتقل من الشعور بالضعة إلى العظمة وربما الكمال .. هكذا تكون القوة المحركة للإنسان هى مركب النقص Inferiority complex .. هذا المصطلح الشهير جدًا الذى أدخله أدلر إلى علم النفس والأدب ولغة رجل الشارع وكل مكان تقريبًا ..

لو حدث ما يعوق المرء عن الوصول إلى الاكتمال الذى يحلم به، فإنه يصير خطرًا على نفسه وعلى المجتمع .. لهذا يتم استخدام منهج (علم النفس الفردى) للوصول إلى هذا الفرد المعقد ..

قسم أدلر البشر إلى أنواع تذكرنا بأنماط أخرى تكررت فى علم النفس :

النوع الآخذ : هؤلاء الأشخاص الذين يأخذون فقط .. أنانيون مزعجون لا جدوى منهم ولا يفيدون الناس ... لابد أنك قد رأيت فى شخص يحمل هذه الصفة الآن .. على كل حال من الصعب أن يعرف هذا النمط نفسه عندما يسمع هذه المعلومة، فكل إنسان يعتبر نفسه مثال العطاء والتضحية ..

النوع الحذر : يخشون التعامل مع المجتمع لأنهم يعتبرون الهزيمة .. لو حققوا شيئًا فليس هذا راجعًا لكفاحهم ..

النوع المسيطر : هؤلاء يفعلون أى شىء للوصول لما يريدون ومن السهل أن يكونوا أعداء " مجتمع ..

النوع الاجتماعى : كما يدل الاسم فهذا النوع من البشر ... أحم .. اجتماعى ..

* * *

هذا لا يختلف كثيرًا عن مستشفى المجانين الذى وجدت عبير نفسها فيه داخل غرفة الكشف ..

فى البداية حاولت أن تكون صريحة مع أدلر فاعترفت أنها كانت تعالج عند فرويد .. هنا انفجر الرجل صائحًا :

- « هذا الأحمق ! مدمن الكوكايين !! »

قالت فى دهشة :

- « مدمن كوكايين ؟ »

- « نعم .. إنه يتعاطاه بإفراط وقد نصح به مرضى كثيرين حتى جعلهم مدمنين (*) .. عندما تدمنين الكوكايين تجدين أن الجنس يكتسب أهمية كبرى ويصير كل تفكيرك مقصورًا عليه .. لقد وضع فرويد نظرياته وهو غارق تحت تأثير الكوكايين لذا اعتبر أن كل خلل فى النفس سببه الجنس .. كل شىء ألقى فوقه ظلال الشك والدنس حتى علاقة الرضيع بأمه والأب بابنه .. عندما تبكين لأن جدك مات فأنت فى الحقيقة تكبتين فرحة عارمة تخلص منه لأن إرادة الموت انتصرت .. »

- « للأمانة لم يقل هذا كله .. »

(*) للأمانة لم يكن الكوكايين ممنوعًا فى ذلك الزمن وكانوا ينظرون له نظرتنا لعلبة السجائر .. لهذا تجد أن فرويد وإيجار آلان بو وبودلير كلهم تعاطوا هذا، وقد كان فرويد يعتبره مفيدًا للتركيز ..

www.liilas.com

ـ « لكنه قاله فى كتبه .. هذا كاف .. »

كانت تصغى فى صبر .. كيف تتأكد أيهما الصادق ؟ قديما قال التعبير الشعبى : « عدوك ابن كارك .. » .. هات سباكا يصلح حوض المطبخ بعد سباك آخر واسمع ما يقوله عن حماقة الأول وغبائه وانعدام ضميره .. سوف يشعرك بأنك كنت ضالة ونجوت بمعجزة .. كنت تتعامل مع أسفل سباك فى العالم .. رزقك الله بأنزه وأبرع سباك ..

كانت قد حكت حلمها لأدلر ، فسألها :

ـ « أنت الأخت الكبرى طبعًا .. »

ـ « نعم .. »

ـ « هذا مهم .. وكيف حال أختك الوسطى ؟ »

ـ « ليست لى أخت وسطى .. فقط أنا و(صفاء) وهى لم رقيقة فعلاً .. تتمنى أن ترانى جثة ممزقة فى الصحراء .. »

قال أدلر وهو يشعل سيجارًا غليظًا :

ـ « جميل .. جميل .. هى فتاة مدللة لا تجيد التعامل المجتمع .. أما أنت فكنت مدللة قبل أن تولد هى .. جاءت لتسـ عقدة الطفل الأكبر .. فقدت عرشك وأهملوك .. هكذا صرت شخ

مزعزعة عصابية ولديك استعداد كبير للإدمان والانحراف ودخول السجن .. »

ـ « أشكرك .. »

ـ « هذه هى الحقيقة .. معظم المنحرفين والسفاحين الذين قابلتهم هم الأبناء الأكبر .. الأبناء الأصغر مدللون لا يصلحون لشىء .. الأكثر نجاحًا واستقرارًا نفسيًا هو الابن الأوسط .. »

ـ « الذى لم ينجبه أبى وأمى .. »

ـ « لو كنت مكانك لطلبت منهما أن ينجبا طفلاً ثالثًا .. هكذا تجو (صفاء) من أن تكون عالة على المجتمع وتصير ابنة وسطى .. أما أنت فقد فات أوان إنقاذك من الانحراف .. »

ـ « هذا مطمئن .. »

راح يتأملها بعض الوقت حتى شعرت بالارتباك ، ثم قال وهو يحك شاربه :

ـ « أنت قبيحة جدًا .. هل لاحظت هذا ؟ »

ـ « كنت أعتقد أننى مليحة ذات وجه مريح .. »

ـ « هذا خطأ .. ميكانزم دفاع .. أنت قبيحة وأنت تعرفين هذا فى أعماقك الباطن .. هذا كون لديك مركب نقص .. وهذا أدى إلى اضطراب .. »

ثم أضاف :

ـ « هذا الكابوس الذى ترينه هو نوع من الاحتجاج الداخلى غير التناقض بين ما تريدين وما لا تقدرين على بلوغه .. مركب النقص هذا يحرك حياتك كلها .. لقد وضعنا يدنا على الخلل وسوف نعمل على العلاج .. سوف نقنعك بأنك لست قبيحة إلى هذا الحد .. »

قالت وقد احمر وجهها غيظاً :

ـ « لكننى بالفعل لست قبيحة .. لست قبيحة على الإطلاق .. »

كانت غادة جميلة بالفعل .. أجمل من عبير بمراحل .. فلم يستعمل هذا الرجل عينيه ؟

قال فى هدوء :

ـ « هذا هو النكران Denial وهو ميكانيزم دفاع معروف .. أنت قبيحة كالشيطان لكنك تقنعين نفسك بالعكس ، ونحن سنجعلك تعتقدين أنك جميلة وبهذا نقهر مركب النقص .. »

قالت مصرة على كلامها :

ـ « إذن لماذا تقنعنى بأننى جميلة إذا كنت فعلاً أعتقد هذا ؟ »

ـ « لأنك غير مقتنعة .. »

هذا الفجرت باكية بصوت عال :

ـ « أنا مليحة .. أقسم بالله العظيم إننى مليحة وأعرف هذا .. كيف أقنعك بذلك ؟ »

8 ـ عن الكسفريت والسباكنتا واللا وعى الجمعى ..

هى فى حقل .. تعرفه جيداً .. إنها طفلة فى الثالثة أو الرابعة ..

تركض فى الحقل .. تطارد اليعاسيب التى لم تكن تعرف أنها كذلك ..

فجأة توقفت الصرخات ..

تعرف أنها لن تسمعها ثانية .. إنها مسرورة .. إنها منتشية ..

لقد صار كل شىء لها .. تصفق بيديها وتطارد اليعاسيب ..

* * *

قال لها الأب فى غيظ وهو يجفف قطرات العرق التى ازدحمت على جبينه :

ـ « غيظ شديد .. ألم تجدى شهراً أفضل للجنون من يونيو ؟ »

قالت فى كبرياء :

ـ « الجنون هو الذهان . وأنا لست مصابة بالذهان .. أنا مصابة بالعصاب .. »

ـ « وهل هناك فارق ضخم ؟ العصاب والذهان يرعمان المريض غير وضع الكسرولة على رأسه .. »

- « الفارق هو قدرة الحكم على الواقع وعلى مدى الاحتياج للعلاج .. الحلم هو ذهان كامل لكن العودة منه ممكنة .. الخمار - بضم الخاء - هو الوسواس الذى .. .. »

قال لها فى ضيق وهو يجر قدميه الثقيلتين فى الشارع :

- « بينى وبينك .. كان هذا الأمر مناسبًا ومنزنًا .. لا أعرف ما هى المشكلة فى أن يتهمك بأنك قبيحة .. الكلام لا يتصل بالمرء وقوله إنك قبيحة لن يجعلك كذلك ! »

- « هذا مهين لى كأنثى .. دعك من أن هاجسًا يسيطر عليه هو مركب النقص .. مركب النقص .. مركب النقص .. هذا لا يطاق - إما أن أختار من يتحدث عن التبيدو والتكوص والميول الأوديبية، أو أقبل بمن يرى الحياة كلها مركب نقص .. »

هنا هتف الأب وهو يشير إلى باب بناية عتيقة :

- « هذا واحد آخر !! »

دنت عبير من اللافتة الصغيرة وقرأت الاسم بصوت عال :

د. كارل يانج
محلل نفسى

قالت (عبير) فى دهشة :

- « لم أر كل هذا العدد من المحللين النفسيين من قبل .. معلوماتى إنها مهنة نادرة وإنه لا يوجد سوى 300 محلل نفسى فقط فى الولايات المتحدة كلها .. ربما لأن المرء يبحث عنهم هنا .. أتذكر أيام المدرسة أننى لم أكن رأيت مطبعة فى حياتى ، وكنت أتصور أن المطابع أماكن نادرة أو لا وجود لها ، ثم أصدرت المدرسة مجلة صغيرة طبعناها على آلة (رنيو) رخيصة .. كنت مشاركة فى هذا المشروع .. اكتشفت وقتها أن المدينة تعج بالمطابع وأنها فى كل بناية تقريبًا .. كل زقاق كنت تشم فيه رائحة حبر (الرنيو) بعد ما تعلم أنفى البحث عنه .. »

- « هل سمعت عن هذا الرجل من قبل ؟ »

- « سمعت عنه .. وأعتقد أن نطق اسمه الصحيح هو (يونج) لكن من العسير ألا يمارس المرء الخطأ الشائع .. دعك من أن الأخطاء اللغوية لها سحر خاص وتتسرب إلى اللسان بسهولة أكثر ، باعتبار أن العملة المزيفة تطرد العملة الصحيحة .. كان يقال شارعنا يطل على الكبريت لفظ (كسفريت) وعلى المكرونة السباجيتى لفظ (سباكتنا) .. تصور أننى أجد عسرًا بالغًا حتى اليوم فى ألا أنطق (كسفريت) و(سباكتنا) ؟ »

www.liilas.com

لم يطق الأب وإن تخيل ابنته تقول لعريس المستقبل : « سأشعل العوقد بالكبريت لأعد لك بعض المكرونة السباكتتا .. » .. ستكون مصيبة بحق ربما تفوق موضوع بلل الفراش هذا ..

واجتاز المدخل وهي معه ..

كان المدخل يعج بالمرضى .. كل مريض تحت المنظر يجلس على درجات السلم ممسكًا بزجاجة ماء بينما يحتشد حوله سبعة من أقاربه .. هذا راق للأب الذى قال لعبير فى رضا :

ـ « علامة مطمئنة .. هذا طبيب بارع .. »

وهو الخلط الشهير لدى الرجل العادى بين كفاءة الطبيب الطبية وسعة رزقه .. سعة الرزق هى التى تملأ العيادات لا المستوى العلمى . وكم من طبيب شديد البراعة ملأ تنسيج العنكبوت مدخل عيادته بسبب عدم دخول أى مريض ..

دنا من أحد المرضى وربت على كتفه ، وقال :

ـ « سوف تشفى إن شاء الله .. ما هى عقدتك ؟ »

نظر له المريض الجالس على الأرض فى دهشة وأعاد له التليفون حول عنقه ، وقال :

ـ « عقدة ؟ »

ـ « نعم .. هل هو النكوص أم الارتكاس ؟ أم لعله نشاط زائد للأنا العليا ؟ »

قال المريض فى ملل :

ـ « بل هو الإسهال .. ستّ مرات فى اليوم شىء متعب حقًا .. مع الكثير من الغازات .. لابد أن (الخبيزة) مع البط هى السبب .. »

نظر الأب للباقين فى حيرة ولم يفهم ، فقال أحدهم مفسرًا :

ـ « د. (سليم الأحدب) .. جهاز هضمى .. أليس هذا من تخصصكم ؟ »

فانحدر وجه الأب وجذب عبير من ذراعها ليصعدا فى الدرج .. وقال لهم إنه ذاهب للتحليل النفسى لقروا مذعورين ..

كانت عيادة (يانج) فى الطابق الثانى .. خالية تمامًا أقرب لكهف مظلم .. هكذا يمكن فهم الأمور ويبدو الأمر مألوفًا ..

دخلا إلى الشقة .. كانت هناك ممرضة عجوز جالسة تطالع مجلة فنهنا منها الأب وسألها عن ثمن الكشف .. طلبت منهما الجلوس وقيدت بعض البيانات ..

لم تسمح لهما بالدخول .. واضح أنه من الصعب أن يقابلا محللا نفسيًا يتركهما جالسين فى الانتظار بعض الوقت بسبب الزحام .. فهذه عيادات تعمل بطريقة (من الشارع إلى غرفة الكشف فورًا) ..

إنه الدكتور (كارل يانج) يجلس وراء مكتبه ..

يمتاز هذا المكتب بشىء غريب .. إنه قاعة فسيحة مزدانة بالأقنعة الأفريقية والرماح المعلقة .. هناك دروع عتيقة وتماثيل خشبية أقرب للطوطم .. على الجدار لوحات عملاقة تمثل بعض الأساطير اليونانية القديمة وربما أساطير صينية كذلك .. هناك برديات فرعونية .. هناك تمثال رأس عملاق لزيوس وهو ينظر للقادمين مهددًا بخراب بيوتهم .. هناك وعاء كانوبى يستخدمه لإطفاء السجائر والأريكة نفسها تذكرك بسرير توت عنخ آمون فى المتحف المصرى.

الخلاصة : تشعر بأنك تدخل مكتب تاجر آثار نصابًا أو عالم مصريات أو عالم أنثروبولوجى .. لا أعرف كيف كان مكتب (فرويد) يبدو لكنه لم يختلف عن هذا حتمًا ..

نظرت (عبير) إلى الباب من الداخل ففوجئت بصورة عملاقة لـ (فرويد) .. غريب هذا .. لكن هناك سهامًا استقرت فى عينه وفوق حاجبه .. يبدو أن (يانج) يستعمل صورة فرويد للتدريب على رمى السهام !

(يانج) نفسه كان رجلاً صارمًا له شارب كث ووجه مقتضب جرىء .. واثق من نفسه وعدوانى قليلاً .. وكالعادة كانت له العوينات النارية تستقر على أنفه .. فى يده لفافة تبغ سوداء

تظل دخان ستة مصانع .. كما قلنا : التحليل النفسى الذى لا يصيب المريض والطبيب بالسرطان يكون فاشلاً ..

كان أول ما قاله هو :

- « معذرة .. أرجو أن تتركها وتخرج .. »

قال الأب فى غيظ :

- « ومن أدراك أنها هى المريض ؟ ربما كنت أنا ؟ »

- « لأن العصاب والفتيات الشابات متلازمان لا يفترقان .. هل تعرف معنى كلمة هستيريا ؟ إنها مشتقة من لفظة (رحم Hyster) اللاتينية .. برغم أننا نعرف أن الهستيريا تصيب الرجال كثيرًا جدًا ، لكن جرى العرف على أنها مرض نسائى .. إنه اللاوعى الجمعى .. أرجو أن تتركها من فضلك .. »

هنا خرج الأب ليجلس مع الممرضة بينما جلست هى متوترة أمام د. يانج ..

- « هلمى .. من أجل فهم المزيد عن اللاوعى الجمعى احكى لى قصتك ولا تختصرى .. »

يا للملل ! لابد أنها حكت هذه القصة ألف مرة حتى هذه اللحظة ! كأنها دار سينما تعرض عرضًا متواصلاً ..

9 ـ عزيزى يانج ..

(كارل يانج Jung) .. اللاوعى الجمعى ..

العالم السويسرى الشهير ـ غير اليهودى لشدة الغرابة ـ الذى ولد عام 1875 وتوفى عام 1961 .. والذى جعل علم النفس يتسع ويأخذ مصادره من الأديان والأساطير وتراث الشعوب والأمثال والأغانى الشعبية وحتى الأطباق الطائرة .. يعرف مثلهو هذا السلاسل أن (يانج) كان له اهتمام شديد بعملية تحضير الأرواح مثلاً... ليس لأنه يؤمن بها ، ولكن لأنه يؤمن بالأسرار التى يكشف عنها اجتماع عدة أشخاص فى مكان مظلم مغلق ليمارسوا طقسًا رهيبًا كهذا .. ولو لم يكن يانج عالمًا نفسيًا ساحرًا مبهرًا ..

منذ طفولته آمن بأنه مهتم بعلم النفس .. درس فى (زيورخ) وراسل فرويد وأهداه أحد كتبه ، ثم فى العام 1913 أصدر كتابه الشهير (سيكولوجية اللا وعى) .. بعد الحرب العالمية الأولى تمكن من أن يجوب العالم .. زار أفريقيا والهند .. رأى الشرق كثيرًا حتى آمن بأن الجانب الروحى من الإنسان مهمل فى الغرب ويجب أن تتم تقويته أكثر .. يجب أن تمتزج الروح بالمادة ..

كانت العلاقات بين (يانج) وفرويد قد بدأت تتوتر .. وفى لحظة بدا أن كلا العبقريين لا يطيق الآخر .. خلافهما كان حول طبيعة الليبيدو ! يانج كان يؤمن أن الليبيدو قوة خلاقة وقد قسم البشر إلى نوعين هما المنقلب للخارج extravert والمنقلب للداخل introvert ، حيث يخرج الليبيدو للعالم الخارجى أو يظل بالداخل ..

نعم .. هكذا يختلف العلماء حول الليبيدو لا حول المال الذى اقترضه أحدهم ولم يعد ، أو الذى استأثر لنفسه بفتاة الآخر .. هذا الخلاف كان عنيفًا لدرجة أن (يانج) ألقى محاضرة فى الولايات المتحدة عن دور التحليل النفسى فى تاريخ حياة (أمنحتب الرابع) ، وكانت آراؤه صادمة لدرجة أن فرويد سقط مغشيًا عليه !!

عندما قامت الحرب العالمية الثانية ، اتهم (يانج) بأنه تعاون كثيرًا مع النازيين .. حاول هو نفى هذا بأنه كان يحاول لعب دور الوسيط بين النازيين والعلماء اليهود .. النازيون كما قلنا كانوا يرتابون فى علم النفس باعتباره علمًا يهوديًا ، وكان على (يانج) أن يظهر لهم أنه كوجه غير يهودى يقبله النازيون .. فى الوقت الذى نشرت فيه كتب فرويد تحرق فى الميادين العامة فى ميونيخ ..

* * *

كسفريت وسباكتنا .. سباكتنا وكسفريت ..

* * *

www.liilas.com

انتهت (عبير) من سرد حلمها المعتاد الممل ..

ثم صمتت منتظرة أن يفسر لها الرجل ما هنالك .. ما هى المشكلة ..

قال فى ثقة :

ـ « إنه اللاوعى الجمعى collective unconscious .. »

لم تفهم .. هل معنى هذا أنها بخير أم فى حالة خطرة ؟

دفن لفافة التبغ فى المطفأة ، وقال ضاحكا :

ـ « لو أنك ذهبت لهذا المجنون (فرويد) فى عيادته ، لقال لك إن حلمك يعبر عن الكبت .. هناك ثعابين وهذا مهم جداً عنده .. هناك دهاليز وهناك سمك .. هذا كفيل بأن يسيل لعابه .. هناك قدمان حافيتان وهناك سقطة من أعلى .. كل شىء فى حلمك معد كى يجد فيه فرويد شيئا .. »

كتمت ضحكتها .. كيف لو عرف ؟ هذا هو ما حدث فعلاً وحرفيًا ..

قال (يانج) وهو يشعل لفافة تبغ أخرى :

ـ « لو سمعت أنك طلبت رأى فرويد أو أحد تلاميذه للسواد أسفك .. أنا كنت أعتبر نفسى من حواريه ، ثم عرفت الحقيقة وسقط الوهم .. إنه مجرد نصاب وهو يلفق الأبحاث طيلة الوقت .. لم يشف أيًا من حالات الهستيريا التى يزعم أنه شفاها .. »

هكذا ابتلعت لسانها .. كانت على وشك أن تتعامل بصراحة معه ، ثم وجدت أن هذا مستحيل فعلاً ..

أردف يانج وقد بدا أن موضوع شتيمة فرويد يروق له :

ـ « طريقته فى التحليل النفسى عجيبة .. إنه يؤمن أن اللاوعى هو صفيحة القمامة التى تدارى أكثر رغباتنا عفونة .. هذا خطأ .. اللاوعى عملية خلاقة متجددة تتراكم فيها خبرات الأجيال .. ما نراه فى الحلم ليس إلا رموزًا تراكمت عبر الأجيال من الأسطورة القديمة والحكاية الشعبية والشعر .. إنه اللاوعى الجمعى .. كل هذه الأشياء موجودة فى اللا وعى وعلينا أن نقيم علاقة طيبة معها كى نعيش حياة سليمة .. لو غرقنا فى اللا وعى جننا .. ولو ابتعدنا عنه صرنا متبلدين .. طفولتك تشبه طفولة البشرية .. الطفل الرضيع هو ذاته رجل الكهف بمعتقداته .. هكذا يمكن فهم الأمر .. أنت تتضجين وتصيرين فردًا مفيدًا للمجتمع وكذلك تتقدم البشرية وتنضج .. العصاب ليس إلا العودة للمراحل الأولى .. للإنسان البدائى .. »

لم تفهم شيئًا على الإطلاق لكنها كانت مسرورة .. الكلام يبدو صائبًا .

قال لها :

ـ « هناك مفهوم الظل .. الظل هو ما يرفض الشخص الواعى أن يعترف به فى نفسه .. وهو يظهر فى الحلم على شكل أشباح سوداء من نفس جنس الحالم ، ما تفطينه أنت هو أن تتكريها أو تحولينها أو تتوحدى معها أو تسيطريها .. »

قالت له وقد تذكرت شيئًا :

ـ « أحيانًا أشعر بأننى غير كاملة الأنوثة .. هناك رجل فى أعماقى يمكننى أن أسترجعه بسهولة .. »

قال ضاحكًا :

ـ « كل رجل يحمل دون وعى جزءًا من الأنثى فى أعماقه واسمها (أنيما Anima) كما أن كل أنثى تحمل جزءًا من الرجل هو (الأنيموس animus) . أحيانًا نشعر بحب أو انجذاب مفاجئ لشخص ما .. السبب هو أننا نرى الأنيما الخاصة بنا فيه .. »

ـ « هل هذا هو تفسير الحب من طرف واحد ؟ »

ـ « بالضبط .. فجأة ترين رجلاً .. وتعتقدين أنه يحمل الأنيموس الخاص بك .. الأنيموس فيك هو مصدر التفكير المنطقى

لطالما ، بينما (الأنيما) فى الرجل هى مصدر التفكير المتهور غير المنطقى .. »

ـ « هذا يشبه المفهوم الصينى عن .. عن .. »

ـ « الين واليانج Yen and Yang .. نعم .. إلى حد ما .. »

الحقيقة أن كل هذا بدا لها أقرب إلى الفلسفة .. ذكرها بأجواء (الفلسفة فى حياتى) لا أعاد الله تلك الأيام السوداء ولم تكن بعيدة عن الحقيقة إلى هذا الحد .. بالفعل يُنظر لـ (يانج) بجدية أكثر بين الفلاسفة وعلماء الاجتماع أكثر مما يُنظر له بين المحللين النفسيين .. مراكز تحليل نفسى محدودة جدًا هى التى تمارس التحليل (اليانجى) ..

قالت له وقد بدأت تتعب من كل هذا الشرح :

ـ « حسن .. وماذا عن مشكلتى أنا ؟ »

ـ « إنه اللاوعى الجمعى ! فكرة السقوط قديمة جدًا منذ كان أجدادنا ينامون على الأشجار وتتخلى يد الواحد منهم عن غصن الشجرة فيسقط .. هذا الحلم ينتهى قبل لمس الأرض .. فى حالتك ينتهى بسبب شعور البلل .. لقد بعثت هذه الفكرة نتيجة للعصاب .. »

ـ « جميل .. لكن هذا لا يساعدنى كثيرًا .. »

ـ « بالعكس .. فهم لغة الحلم الرمزية هو بداية العلاج للعصاب يجب أن تفهمى وأن تعقدى علاقة طيبة مع هذه الرموز .. أنه اللاوعى الجمعى كما تعرفين .. »

ثم أغلق المفكرة ، وقال فى رضا :

ـ « هذا عمل طيب بالنسبة لأول جلسة .. فى الجلسات القادمة سوف نفهم أكثر .. »

* * *

10 - بعض التاناتوس ..

على الباب سألها أبوها وهو يفرك شاربه فى شقف :

ـ « هيه ؟ سبع وإلا ؟ »

ـ « لا هذا ولا ذاك .. المزيد من اللاوعى الجمعى .. »

ثم وجدت أنه يمسك بمجموعة من أوراق اللعب فى يده .. دققت النظر فوجدت أنها تحمل رسومًا غريبة .. هذه أوراق تاروت ! أبوها يلعب التاروت مع الممرضة العجوز !

ـ « ما معنى هذا يا أبى ؟ »

قال فى خجل :

ـ « أوراق تاروت .. إن الممرضة تلعب بها ، وتقول إنها تفوق فى كثير من فهم طفولة العقل البشرى ومفهوم الأسطورة .. »

ـ « دعك من هذا الهراء .. فقد تأخرنا على الغداء .. »

هذا وضع ما معه من أوراق وشكر الممرضة ولحق بابنته .. سألها فى حيرة وهو ينزل معها الدرج وسط جحافل المرضى المصابين بالإسهال، وينتظرون الشفاء على يد د. (سليم الأحدب) عازف الخبيزة مع البط :

www.liilas.com/vb3

ـ « لا أفهم مشكلتك .. هل هى الرغبات الدفينة التى تكبتينها وسببت العصاب ؟ أم هو مركب النقص ؟ أم هو الوجدان الجمعى ؟ أم أنت ببساطة مجنونة أو ممسوسة ؟ »

ـ « ربما هذا كله يا أبى .. »

* * *

هى فى حقل .. تعرفه جيدًا .. إنها طفلة فى الثالثة أو الرابعة ..

تركض فى الحقل .. تطارد اليعاسيب التى لم تكن تعرف أنها كذلك ..

من جديد تتعالى الصرخات هذه المرة .. هذه أمها تركض خلفها وتلطم خديها .. هناك رجال كثيرون يقرءون القرآن .. هناك صندوق يحمله رجلان .. هناك ..

* * *

من جديد كانت الثعابين ..

الثعابين التى تملأ الردهة وتزحف فى كل مكان .. هل الثعابين تتسلق الجدران ؟ ربما .. إنها تفعل هذا هنا على الأقل ..

كانت تقف على باب المطبخ عالمة أنها لن تستطيع الوصول إلى غرفتها أبدًا .. حافية القدمين وهذا يجعلها هشة جدًا ..

تقول للثعابين وهى تبعدها بيدها :

ـ « أنت لا تلدغين .. أنا أعرف هذا .. أنت مجرد رمز فرويدى لفكرة .. لن أخاف منك .. »

ولكن أين أبى ؟ أين أبى ؟ يجب أن يكون موجودًا لأن الأمر يخل بمركب (اليكترا) ..

الثعابين جاءت على رائحة الأسماك .. أسماك ؟ لابد من ذلك أن هذا رمز فرويدى آخر .. خالها يكره أغانى (أم كلثوم) .. لكن خالها ليس هنا .. يجب ألا يكون هنا وإلا انتهز فرويد الفرصة وندمجه فى تفسير الحلم ..

نظر .. الطيران هو الزواج عند فرويد .. الطيران والقطار العملية الجراحية . كلها تعنى الشىء ذاته .. وبما أنها ستسقط هذا يعنى أنها غير موفقة فى حياتها العاطفية ..

دجاج سود قدمة .. هذا هو الجزء الخاص بـ (يانج) .. لابد أنهن إناث ..

ثمة طفلة جوار بئر .. لكنها لا ترى وجهها .. كأن هناك من وجهها بالأسود ..

الماء يتساقط فوق رأسك .. الماء يبلل كل شىء .. الماء ..

يبدو أن هذا وقت القبول اللا إرادى .. أنت غير راغبة فى ذلك لكن الواجب هو الواجب .. سوف تملأ (صفاء) الدنيا صراخا لكن لا يهم .. لن يتم الكابوس من دون قبول حتى وإن لم يرق لها هذا ..

ثم السقطة .. السقطة التى يمكن تفسيرها على طريقة (يونج) المزيد من اللا وعى الجمعى .. العصاب ..

آهههههههه !

* * *

من جديد الأم تقف بكية ..

(صفاء) تملأ الدنيا سبابًا وهى تقف على بعد مترين من الفراش :

ـ « أنت مخبولة ! لابد من أن نجد لك علاجًا جذريًا أو تلبسى حفاضة قبل النوم ! »

الأب محتقن الوجه يراقب هذا كله ويفكر فى عمق :

ـ « إذن لم يفدك العلاج النفسى بعد .. الأمور تزداد سوءًا أو على الأقل لم تتحسن .. »

جلست (عبير) على حافة الفراش وغطت وجهها ، ثم قالت :

ـ « الحقيقة أننى ارتكبت الخطأ الذى يقع فيه المرضى دومًا .. لم أكمل العلاج مع طبيب واحد ولم أعط أحدهم فرصة لاستكمال دواء .. لكننى .. »

قبل أن يفهم أحد ما حدث كانت قد نهضت .. ركضت نحو الصالة .. فتحت الشرفة الكبيرة هناك .. ووضعت ركبتها على السور ..

ظلام الرهيب فى الخارج .. السقوط .. لحظة قاسية ثم ينتهى كل شىء ..

لم يبدأ ؟؟؟؟؟؟؟

من الغريب أنها لم ترغب فى الانتحار ، ولم تقبل الفكرة قط .. كانت متدينة .. لكنها وجدت نفسها تفعل ذلك من دون أن تعرف السبب .. كان جسدها يتصرف بإرادة مستقلة عن إرادتها ..

لا تدرى متى ولا كيف شعرت بيد أبيها القوية تطبق على ساعدها وتجرها إلى الداخل ، بينما أمها توصد الشيش بإحكام .. وتنهال على الأريكة .. الأم تولول :

ـ « لابد أنه عفريت قد مسك ! لا تفسير سوى هذا ! »

(صفاء) أختها تراقبها فى مزيج من الندم وعدم التصديق، كأنها تقول : لن ينطلى علىّ هذا التمثيل .. أتمنى لو تركك أبى لنرى إن كنت ستفعلينها حقًا .. لا أصدق يا عزيزتى ..

أبوها يقول وهو يوجه لها صفعة خفيفة جدًا على خدها أقرب إلى التربيت :

ـ « إن لم تكن الفضيحة فهو الكُفر .. أترانا قصرنا فى شىء أو لُمناك على شىء ؟ أقضى اليوم كله فى عيادات المحللين النفسيين ، تاركًا مصالحى ، وأسمع كل ما يقولون عن التكوين واللبيدو واللاوعى الجمعى .. بعد هذا كله تنوين أن تحرقى قلبى عليك ؟ »

كانت تريد أن تفسر ..

فعلا هى لم تتعمد شيئًا من هذا .. ليتهم يفهمون .. كل جسدها يتصرف على هواه ودون أن يطلب رأيها ..

قال الأب فى حزم وبلهجة من لا يقبل المناقشة :

ـ « سنعود غدًا إلى فرويد .. لقد بدأنا به وسنعود له .. »

* * *

لم يكن فرويد موجودًا فى اليوم التالى .. كان فى النمسا يجرى واحدة من جراحات استئصال سرطان الفم الثلاثين التى أجراها ..

على أنه عاد فى اليوم التالى بخير كما يحدث دومًا فى الفانتازيا ، وكان يدخن الغليون كالعادة ..

قال للأب عندما سمع تفاصيل ما حدث :

ـ « هذا متوقع .. »

ـ « ما هو المتوقع ؟ »

ـ « إن هذا يثبت رأيى حول إرادة الموت (الثاناتوس) Thanatos .. الإنسان حى يحمل ميلاً غريزيًا فطريًا للموت والعودة إلى الحالة العضوية الأولية .. هناك رغبة الحياة (الإيروس Eros) ورغبة الموت .. هذا هو الاكتشاف الثورى الذى توصلت له متأخرًا ، وهو ما أغير رأيى بصدد طاقة اللبيدو .. الرغبة فى الجنس جزء من رغبة الحياة ، لكنها ليست كل شىء .. »

ـ « وما دخل هذا بمحاولة البنت أن تثب من الشرفة ؟ »

ـ « لا شىء . ما فعلته طبيعى جدًا وجزء من تكوين الكائن البشرى .. »

ـ « هل يجب أن يثب الكائن البشرى الطبيعى من الشرفة ؟ »

www.liilas.com

ـ « فقط عندما يكون طبيعيًا أكثر من اللازم .. وهذا يعنى أننا غير طبيعيين إلى هذا الحد .. »

ـ « تعنى أننا مجانين لأننا لانملك درجة كافية من الجنون ؟ »

ـ « هذا صحيح .. »

تحول وجه الأب إلى ثمرة طماطم ناضجة ، وراحت الشرايين تنبض فى فوديه .. لو ترك لنفسه العنان لقتل فرويد بعد ولادته بستين عامًا ..

لكن منظر ابنته وهى تهرع إلى الشرفة لترمى بنفسها .. منظر الفراش المبتل .. كل هذا جعله يقرر أن يصمت .. إن اضطره الأمر للتعامل مع شيطان مصاب بالجذام والسل فسيفعل ..

هكذا غادر الغرفة بينما استلقت (عبير) على الأريكة ..

قال لها (فرويد) من وراء ظهرها :

ـ « المشكلة أنك تقاومين بشدة .. ميكانيزمات الدفاع تعمل عندك بشكل عنيف .. »

ـ « لا توجد عندى ميكانيزمات دفاع .. هذه أشياء لا أفهمها .. »

ـ « بللت الفراش بالبول وهذا أمر خطير .. ألا ترين هذا ؟ »

ـ « ليس خطيرًا لهذا الحد .. (صفاء) هستيرية ومجنونة .. »

سمعت صوته يبتسم .. يبدو هذا غريبًا لكنها تعلمت أن تسمع بسامته فى الظلام .. قال لها :

ـ « الآن أنت تمارسين نوعين من ميكانيزمات الدفاع .. الإنكار Denial باعتبار التبول الليلى شيئًا غير مهم .. والإسقاط Projection لك تعتبرين أختك هستيرية .. هذا لأنك تخشين أن تكونى هستيرية .. »

ثم سألها :

ـ « هل لك هوايات ؟ »

ـ « أحب الرسم .. هل هذا مشكلة أيضًا ؟ »

ـ « هذا ميكانزم دفاع آخر هو (التسامى أو الإعلاء sublimation) .. بك تحولين عواطفك الضارة إلى شىء راق سام .. أعتقد أن لرحمان يفعل الشىء ذاته .. العدوانى يصير مصارعًا أو محاربًا نداعًا .. هاوى الاستعراض المرضى Exhibitionist يصير بطل مثل أجسام والفتاة تصير (باليرينا) .. هل تحبين قراءة روايات ؟ »

قالت فى براءة :

ـ « نعم .. لكن الأدباء لا يلتزمون التهذيب اللازم .. يحشرون الكثير من المشاهد المشينة التى تخجلنى وتخنقنى .. لا أعرف لماذا يفعلون هذا ؟ »

قال فرويد وهو ينفض غليونه :

ـ « هذا ميكانزم دفاع تتبعه الفتيات كثيراً اسمه التعويض Compensation .. إن هذا الاشمئزاز ناجم عن أنك تهتمين فعلا بهذه الأمور وبشدة .. وبما أنك عاجزة عن قبول هذا من نفسك فإنك تتخذين موقفاً مضاداً .. الفتيات الحساسات اللاتى يلاحظن هذه الأشياء أكثر من سواهن ، هن فى الحقيقة مهتمات بها جداً .. عندكم فى العربية يقولون : (يتمنعن وهن الراغبات) .. بينما فى الأدب العالمى ينتشر نمط المرأة المحافظة العصابية التى تخفى براكين تحت جلدها .. هناك عالم فرنسى ألف كتاباً فجاءه امرأة محافظة فى حفل ، ولامته على أنه ذكر بعض الألفاظ الجنسية فى كتابه .. مثلاً ذكر كلمة كذا عشرين مرة وكلمة كذا عشر مرات .. قال لها : إذن أول شىء فعلته يا سيدتى عندما وجدت الكتاب أن بحثت عن هذه الكلمات ؟!!! »

نهضت (عبير) من رقدتها لتجلس ، وصاحت فى غيظ :

ـ « لماذا لا تقبل أن يوجد شىء واحد برىء فى العالم ؟ »

ـ « لأنه لا يوجد شىء واحد برىء فى العالم .. »

ـ « لماذا لا تفترض أن الفتاة التى تكره قراءة الأدب المكشوف تقول ذلك لأنها فعلاً تكره قراءة الأدب المكشوف ؟ »

والحقيقة أن (عبير) وضعت يدها فعلاً على مأخذ مهم ضد الدكتور فرويد .. هناك فيلسوف يدعى (بوبر) قال إن صحة أية نظرية علمية يأتى من قابليتها للنفى ، وهذا يعنى أن نظريات فرويد علم زائف لا قيمة له .. ما لا يمكن نفيه لا يمكن إثباته .. فرويد يقول إن عندك ميولاً خفية .. لو أنكرت إن عندك هذه الميول فهذا لا قيمة له عند فرويد ، لأنك تمارس الكبت والرقابة على عقلك الباطن .. إذن أين يوجد الرجل الذى لا يملك ميولاً جنسية ؟ منذ البداية يفترض فرويد أنه لا وجود له .. الموقف يشبه أن يسألك المحقق : هل قتلت (شلاطة) ؟ إذا قلت إنك لم تقتل (شلاطة) ، اتهمك المحقق بأنك تكذب وأنه توقع هذه الإجابة .. إذن ما قيمة السؤال ؟ كيف تثبت العكس ؟

ارتبكت (عبير) ..

هذا سوف يعلمها (فرويد) هذا كيف تشك فى نفسها .. تشك فى كل شىء ..

11 ـ ميكانيزمات دفاع

أمها كانت منهمكة ..

فى حياة كل أم لحظة تفتح فيها خزانة الثياب ، وترص ثياب الشتاء أو ثياب الصيف ، وتضع بين ثناياها قطع (النفتالين) حتى عودة الفصل ذاته .. هذه هى اللحظة .. تجد شيئًا هنا أو هناك فتتوقف العملية إلى أن تفحص الشىء جيدًا وتتذكره ..

هكذا كانت منهمكة فى طى ثياب الشتاء ، وهى مهمة تأخرت كثيرًا .. كان يجب أن تقوم بها فى مايو لكنها أجلتها إلى يونيو ..

(غادة) /(عبير) تجلس على الفراش تتشرش مع أمها .. و(صفاء) عند صديقة لها ..

ألقت الأم بمظروف يحوى مجموعة من الصور على الفراش جوار (عبير) وواصلت ما تقوم به ..

مدت (عبير) يدها تتفحص الصور بذهن شارد .. معظمها صور بالية بالأبيض والأسود تبدو كأنها أفيشات فيلم من أفلام (فاتن حمامة) و(عماد حمدى) .. الزوجان الشابان يمشيان على الكورنيش وبطن الأم منتفخة بـ (عبير) طبعًا .. زفاف شخصين ما

عندما كانت حفلات الزفاف تقام على أسطح البيوت .. إلخ .. إلا أن (عبير) رأت هذه الصور ألف مرة من قبل ، لكنها لم تلق النظر فيها ..

فجأة رأت صورة طفلة .. طفلة رضيعة عمرها عام واحد تقريبًا .. تجلس فى جلباب واسع مريح وتضحك ضحكة مشرقة ..

لكن (عبير) لم تشعر براحة ..

شىء فى هذه الصورة أشعرها بالرعب .. راحت يدها ترتجف ..

ألقت نظرة على أمها فوجدتها تنشب على أطراف أصابعها محاولة الوصول إلى أعلى رف فى خزانة الثياب ، هكذا مدت (عبير) يدها وأخفت الصورة فى جيبها ..

لماذا شعرت بالذعر ؟

ما سر هذه الصورة ؟

* * *

هى فى حقل .. تعرفه جيدًا .. إنها طفلة فى الثالثة أو الرابعة ..

تركض فى الحقل .. تطارد اليعاسيب التى لم تكن تعرف أنها ملك ..

www.liilas-com.com

هناك من يصرخ .. صرخات رفيعة جداً من خلفها ..

تنظر إلى الخلف للحظة ثم تواصل الركض ومطاردة اليعاسيب ..

فجأة توقفت الصرخات ..

* * *

كانت تشعر بصداع عظيم ..

نهضت إلى الحمام وهى تترنح ، وتأملت وجهها فى المرآة فوق الحوض فرأت أنه يشبه وجه جثة انتفخت وتعفنت بعد ما ظلت ملقاة فى الصحراء أسبوعًا ..

ماذا حدث ؟ بم أصابتها تلك الصورة المسحورة ؟

إنها .. موشكة .. على .. فقدان الوعى ...

لكنها نظرت إلى عينيها فى المرآة ، وهتفت :

ـ « تذكرى يا فتاة .. هذه ميكانيزمات دفاع .. لهذه الصورة معنى رهيب بالنسبة إليك .. بهذا يعاقبك عقلك الباطن على اختراق هذا الحجاب .. »

هناك من يدخل الحمام ..

أبوها يقف هناك وراءها وينظر لها فى دهشة :

ـ « (غادة) .. هل أنت بخير ؟ »

تماسكت إلى أن استطاعت أن تقف ثم مدت يدها فى جيبها وأخرجت الصورة :

ـ « أبى .. من هذه ؟ »

نظر إلى الصورة وقطب جبينه .. فقط تنحى بضع خطوات خارج الحمام ليقرأ الفاتحة فى الصالة ، ثم قال :

ـ « أنت تعرفين .. هذه أختك (مى) يرحمها الله .. لماذا تسألين ؟ »

نظرت له فى عدم فهم ، فقال :

ـ « تعرفين (مى) .. الغرق فى أرض (الدلنجات) .. لم تعد تذكرها لكنك تعرفين .. »

تعرفين ..

تعرفين ..

* * *

تقف على الأريكة أمام فرويد .. تستدير لترمق عينيه الناريتين اللتين عوينتاه ، وتقول :

ـ « نعم . أعرف .. كانت لى أخت .. كانت تصغرنى عاما وتوفيت وأنا فى الثالثة أو الرابعة .. هذا يحدث فى عائلات كثيرة .. الطفل الذى مات وهو رضيع يُعامل كأنه لم يوجد .. أعرف أن لى أخت توفيت فى صغرها لكنى لا ألاحظ التفاصيل .. »

قال بصوته العميق :

ـ « أو لا تذكرينها .. »

ـ « ربما .. »

ـ « أو لا تريدين أن تذكريها !! »

ثم فتح المفكرة وبدأ يدون ..

ـ « أريد أن تغمضى عينيك .. أنت الآن فى لحظة وفاتها .. لماذا استعملت تعبير (لا ألاحظ التفاصيل) ؟ لا أحد يتكلم بهذه الطريقة . يجب أن تقولى : (لا أتذكر التفاصيل) .. »

ـ « ربما .. إنها عثرة لسان .. »

ـ « نعم .. نعم .. عثرة لسان ، وعثرات اللسان ليست صدفا . أنت الطفلة الأولى فى الأسرة .. (صفاء) لم تولد بعد .. أنت الملكة المتوجة .. كل ما تفعلين ظريف حتى لو بللت البساط ببولك أو وضعت إصبعك فى أنفك .. أبوك لك بالكامل .. (غادة) الطفلة المدللة التى

عود الأب من عمله ليلعب معها .. ثم جاءت (منى) .. الشيطان الذى جاء ليسلبك عرشك .. كل شىء صار لها .. كل وقتهما مخصص لها .. يتزامن مجىء الطفل الثانى دوما مع كبر الطفل الأول وفهمه للمسئوليات الملقاة عليه .. يبدأ اللوم .. تبدأ التربية .. تبدأ بعض القسوة .. من هنا يشعر الطفل الأول أن كل هذا حدث لأن الوغد الثانى جاء .. »

ـ « أنت تبالغ .. »

ـ « من ثم ليس من المبالغ فيه أن نفترض أنك تمنيت لو تزول من على وجه البسيطة .. لم تتمنى لها الموت لأن الأطفال لا يعون فكرة الموت قبل سن العاشرة .. هو بالنسبة لهم (عدم وجود) لا أكثر .. »

ـ « أنت مجنون .. »

كانت تبكى .. هذا الشىء الحار المالح الذى يسيل على جانبى أنفها ليس دما .. إنه دموع ..

* * *

أنت فى حقل ..

أرض الدلنجات التى ورثها أبوك ..

من النادر أن يذهب هناك لكنه فى ذلك اليوم صمم على أن يصحب الأسرة كلها ..

أنت تلعبين .. تطاردين اليعاسيب .. صوت أم كلثوم يخرج من الراديو الصغير الموضوع على ملاءة فوق الأرض « أغدًا ألقاك؟ يا خوف فؤادى من غدى .. »

خالك يصيح ضاحكًا إنه لا يحب أم كلثوم .. يقول أبوك فى غضب :

ـ « الست يا جاهل .. الست . هل هناك من لا يحب الست ؟ »

يصرخ خالك الشاب إنه الوحيد .. ثم يهشم البطيخة التى ابتاعها بلبضته ليكتشف أنها بيضاء تمامًا .. تقول الأم فى استفزاز :

ـ « كنت طيلة حياتك أسوأ من يشترى البطيخ .. »

أنت تركضين وراء اليعاسيب ..

أبوك يظن أنه يجيد لعب (الراكيت) .. يخرج ثلاثة مضارب .. مضرب معه ومضرب مع خالك ومضرب مع أمك .. أمك تركض للمرة الأولى تركض .. بلا رشاقة .. تتعثر وتلهث .. تلاحق الكرة ..

ضحكات .. مرح ..

أنت تراقبين ما يحدث وتطاردين اليعاسيب ..

دودة أرض عملاقة تزحف .. أنت صغيرة جدًا .. قلت إنها ثعبان وارتجفت رعبًا ..

ابتعدت عنها ..

« هناك نوحة عملاقة على الجدار تظهر فتاة طفلة فى حقل نجلس حوار بئر .. »

أنت ترين هذا المنظر .. ترين (مى) تزحف مبتعدة من حيث كنت تجلس فوق الملاءة .. تزحف ..

ترين هذه البئر التى تعتليها طلمبة صغيرة .. الماء يترقرق بهيًا جميلاً فى ضوء الشمس ..

(مى) تزحف نحو البئر ..

(مى) تزحف ..

تفتحين فمك لتنادى الكبار « لكن أين ذهب صوتها ؟ لا صوت لها على الإطلاق .. إنها تصرخ لكن لا يخرج شىء .. » كلهم هناك فى الطرف الآخر من الحقل يصخبون ويتكلمون بصوت عال .. تعالوا ساعدونى « إن أباها هناك .. لابد أن أباها سيعرف ما يجب عمله .. »

www.liilas.com/vb3

لم تكن هناك صرخات .. فجأة دنت (مى) من البئر ثم توارت ..

ظلت صامتة لحظة تراقبين المشهد ثم ابتعدت ..

رحت تطاردين اليعاسيب ..

من خلفك تتعالى الصيحات (مى) .. (مى) ..

لقد افتقدوا الطفلة الرضيعة ..

يبحثون .. يبحثون ..

سوف يمر وقت طويل قبل أن يجدوا الجثة الطافية فوق مياه البئر..

لن تعودى هنا أبدًا .. لن يعود هنا أحد ، وسوف يبيع أبوك الأرض لأنه لا يريد أن يراها ثانية ..

* * *

كانت تبكى وتغطى وجهها ..

(فرويد) من ورائها يواصل الكتابة ودخان الغليون يتصاعد كثيفًا :

ـ « لقد نسيت ما حدث .. إنه فقدان الذاكرة الهستيرى وهو من ميكانيزمات الدفاع الشهيرة .. ما هو شنيع أكثر من اللازم هو ببساطة لم يحدث .. لكن عقلك الباطن ظل يحمل الوصمة .. أنت أردت قتل (مى) .. أنت قتلت مى .. كان بوسعك أن تصرخى

وتنادى الكبار ، لكنك لم تفعلى .. لماذا ؟ لماذا احتبس صوتك ؟ لأنك أردت أن تموت .. لم تغفر لك الأنا العليا هذا .. عاقبتك بالعصاب .. فى كل كابوس تعاقبك الأنا العليا من جديد على هذه الجريمة ثم تصحين من النوم مبتلة ملوثة بوصمة تجعل الناس يشمئزون منك .. فى كل كابوس تعدمك الثعابين .. من أين جاءت الثعابين ؟ من دودة الأرض التى رأيتها .. »

قالت والمخاط يسيل من أنفها بلا انقطاع :

ـ « أنت فسرت الكابوس من قبل ، وقلت إنه كبت جنسى .. »

ـ « كنت مخطئًا .. لم تكن معنى كل الأوراق .. الخطأ شائع جدًا فى التحليل النفسى .. لكننا قد لمسنا الحقيقة وعلينا أن نرى الطفلة الصغيرة (غادة) .. ما كان بوسع طفلة فى الثالثة أن تفعل أى شىء .. أنت لم تقتلى (مى) . إهمال الكبار هو المسئول .. يصعب أن نقنع الأنا العليا بشىء لأنها لا تعترف بالطفولة والبلوغ .. لكننا سنتوصل لهذا فى النهاية .. »

وساد صمت طويل لا يقطعه إلا صوت دخان الغليون (دخان لغليون له صوت هنا) .. ثم قال كأنه يطمئن نفسه :

ـ « سنتوصل لهذا فى النهاية .. »

* * *

عبير وعبير وعبير

(مسرحية من فصل واحد)

(نفس للديكور والإضاءة) ..

الشخصيات :

نفس الشخصيات ..

تدخل (عبير هى) متمايلة وتحك شعرها فى حركة غير أنيقة بالمرة ..

عبيرهى :أعتقد أن هذا الصداع قد انتهى .. يبدو أن الكابوس لن يعود.

تدخل (عبير أنا عليا) ممسكة بكتابها المعتاد وإن بدا عليها الرضا ..

عبيرأنا عليا :من الصعب أن أعتبر (غادة) /(عبير) بريئة من قتل (مى) ، لكن علىّ أن أقبل هذا .. الطبيب أقنعنى أنه ما كان بوسعها أن تفعل شيئا وهى فى الثالثة .. لكن بالنسبة لى لا وجود لسن الرضيع مسئول كالكبير بالضبط ..

عبيرهى : مشكلتك إنك تطالبين الناس بما هو فوق طاقتهم .. من الطبيعى أن يغار الطفل ويمقت ويتمنى الخلاص من أعدائه ..

عبيرأنا عليا :مهمتى أن أطالب الناس بما فوق طاقتهم ..

عبيرهى :سوف تشفين من هذه الهلاوس وتتعلمين كيف تستمتعين بحياتك بلا ألم.

عبيرأنا عليا :لا أتمنى ذلك .. لا يجعلنا عظماء سوى ألم عظيم .. هكذا قال (ألفريد دو موسيه) ..

عبيرهى :تصورى أننى أجد فرويد هذا جذابًا .. عجوز كئيب مصاب بالسرطان ، لكن فيه جاذبية لا توصف ..

عبيرأنا عليا :تذكرى مبدأ التحويل .. العامل الذى (لا يمكن أن نحلم بأهميته) كما وصفه (فرويد) .. من المعتاد أن تحب المريضة طبيبها النفسى وربما تتمثل فيه الأب ..

عبيرهى :لا يهمنى التفسير .. المهم أنه يروق لى ..

عبيرأنا عليا :لن تتغيرى أبدًا .. ذات الدنس والتفكير فى صغائر الأمور ..

تدخل (عبيرأنا) مندهشة ..

عبير أنا عليا : تتشاجران من جديد ؟ (عبير) الكبيرة تعالى بالفعل من هذا الصراع ..

عبير هي : لا أطيق التصنع .. وهي متصنعة ..

عبير أنا : قلت لك ألف مرة إن هذه طبيعتها ولا حيلة لها فيها ..

(تنظر لخلفية المسرح) هناك رجل قادم ..

يدخل المرشد وهو يضع يديه في جيبيه وقد بدا عليه الاستمتاع

المرشد : لو سمحتن لي .. يبدو أن وقت الرحيل قد حان .. لقد انتهت القصة ..

عبير هي : أنت وسيم جدًا .. أنا مستعدة للذهاب معك إلى أي مكان .. خذني أنا واترك هاتين ..

المرشد : للأسف لا أستطيع أن أكون انتقائيًا .. أنتن الثلاث تمثلن طبقات العقل الباطن لعبير الكبيرة ولا يمكن أن آخذ واحدة دون الأخرى ..

عبير أنا : مفهوم .. مفهوم .. إنها للضرورة .. نحن ثلاث ..

عبير أنا عليا : ولكن إلى أين ؟ أرجو ألا تكون قصة تافهة مخصصة للتسلية فقط ..

المرشد : بصراحة لا أعتبر التسلية البريئة عملاً فاسدًا ، لكني على كل حال أحملكن إلى مغامرة واقعية من الحرب العالمية الثانية ..

عبير أنا عليا : جميل .. بُعد ثقافي لا بأس به .. ربما بطولات أيضًا ..

عبير هي : أنا أحب الحرب . أرجو أن يكون هناك الكثير من الدم والقتل .. أرجو أن يكون هناك ضباط شديدو الوسامة ..

المرشد : هناك الكثير من كل شيء .. فقط تعالين معي وسوف تفهمن كل شيء ..

عبير أنا عليا : هيا بنا .. فقد سئمت عالم التحليل النفسي ..

عبير هي : للمرة الأولى أتفق معك .. وداعًا يا د. فرويد ويا د. يانج ود. أدلر .. وداعًا للعصاب والارتكاس واللكسوص ومركبات النقص واللاوعي الجمعي وكل هذا الليبيدو ..

يخرج الجميع

ستار ..

تمت بحمد الله

www.liilas.com

المصـــادر :

- روبرت داونز : كتب غيرت العالم . ترجمة أمين سلامة . الهيئة المصرية العامة للكتاب 1977.
- سيجموند فرويد : الموجز فى التحليل النفسى . ترجمة سامى محمود على . دار المعارف . الطبعة الرابعة 1998.
- سيجموند فرويد : ما فوق مبدأ اللذة . ترجمة إسحق رمزى . دار المعارف . الطبعة الخامسة 1994.
- سيجموند فرويد : تفسير الأحلام. ترجمة مصطفى صفوان . دار المعارف . الطبعة الرابعة 1994.
- أنيس فهمى أفلاديوس : السينما والمسرح وأمراض النفس . الهيئة المصرية العامة للكتاب 1982.
- عدد من مواقع الإنترنت .

■ Sigmund Freud : Totem and Taboo. Pelican Books. 1938.

نادى المحاربين الجدد

رما زالت أعمال القراء تتكدس عندى . وهذا شىء محبب
نفس لولا المسئولية الأدبية التى يلقيها هذا على كاهلى ..
ر الذى يذكرنى بما قاله (ريبلى) صاحب مقالات (صدق أو
صدق) الشهير ، عن أنه لو مشى الشعب الصينى فى طابور
ون من خمسة أفراد أمام نقطة بعينها فهذا الطابور لن يتوقف
له .. احتج الكثيرون على عدم دقة هذا الافتراض ، لكنه قال
م إن هناك أجيالاً من الصينيين سوف تتعلم المشى وتتخذ
نها فى الطابور ! معنى هذا أن كومة الأعمال التى لدى لن
ية أبدًا لأن قراء آخرين سوف يجربون موهبتهم فى الكتابة ..
ذ أعمال مطبوعة كثيرة لن أستطيع الرد عليها فى هذا الكتيب
ر لضيق الوقت الذى لا يتسع لإعادة نسخها ، لكنى سأقدمها
ر الكتيبات التالية إن شاء الله .. هذا وعد ..

بدأ اللقاء مع الصديق أحمد عرفة الذى يبدو أنه مولع
صص الرعب .. عنوان القصة التالية يروق لى بشكل خاص
ن تعالوا نطالعها معًا ..

مسكون

تأليف أحمد عرفة

Ahmedarafa20000@hotmail.com

لبرودة فبراير الشديدة تبخرت أسفل تلك الموجات المتوالية من الهواء الساخن الملتهب. أدرت رأسى بسرعة وأنا أشعر بأهدابى تكاد تحترق من فرط الحرارة ثم استرخيت بجسدى على المقعد الجلدى فى سيارة الرائد أيمن .

* لا أستطيع أن أصدق ما فعلته .. هل أنت مجنون ؟!

قالها أيمن وهو يدلف بداخل السيارة ثم يدير محركها مردفاً :

* يجب أن أذهب بك للمستشفى سريعًا .. ذلك الجرح فى صدرك ينزف بصورة غريبة .

ولكننى لم أرد .. فقط أغمضت عينى وقلبى ينبض بعنف .

* هناك أشياء لا نفهمها ولكنها لا تقبل الجدل .. تلك الفيلا مسكونة منذ سنوات .. الجميع يعلم ذلك ولا يجرؤ على مناقشته ولكنك .. أنت .. أنت .. مجنون .. بالتأكيد مجنون .. أنا لا أعرف كيف غادرتها على قيد الحياة .

وأنا أيضا لا أعرف كيف حدث ذلك ولا كيف تركنى أعيش .. ذلك الكيان الشيطانى .. أتذكره وينتفض قلبى بعنف أكثر .

فتحت عيناى قائلاً له وهو ينطلق بالسيارة :

- لقد تلقيت إشارة النجدة وكنت بجانب المكان .. لقد كانوا يستنجدون بى بأيمن .. رجل وزوجته ومعهما الخادمة .. لو كنت أنت قادر على تجاهل ذلك والجلوس فى مكتبك مرفهًا تعبث بحاسبك المحمول فانا لا أستطيع أن أتغلى عنهم .

ضرب بقبضته اليمنى على المقود بغضب :

* أربعة عائلات توفيت فى تلك الفيلا والخامسة أصيب أفرادها بالجنون .. انهيار أو جان أو عفاريت لا أعرف ولكنه شىء خارق يحدث هناك .. وأنت .. انظر لما فعلته .. لقد حولت المكان لقطعة من الجحيم .. لماذا حرقت الفيلا ؟ لقد كانوا بالفعل فما الداعى لتفجيرها بأسطوانة الغاز .. سوف نعانى الصداع لشهور بسبب فعلتك تلك ..

استمر فى كلامه ولكننى لم أعد أسمعه .. فقط أتذكر مشهد جسد تلك الخادمة وهى معلقة من حلقها فى الثريا وتتقلص أعلى فى توتر .

الرجل تتصل بالنجدة من هاتفه المحمول يصرخ ويطلب إنقاذه من شىء غامض .. ذهبت للفيلا التى يعرف جميع السكندريين سمعتها السيئة .. كان الوقت بعد منتصف الليل ، دخلتها مع أفراد قوة الدورية المكونة من ثلاثة جنود .. وما حدث هناك .. كان رهيبًا .

ـ النار تقضى على كل الشرور .

قلتها فى هدوء ولكن قلبى مازال ينتفض بعنف .. شىء ما خطأ .. أشعر بذلك .

* النار ماذا؟ حسنا .. هذه هى البداية سوف تتكلم كلامًا غامضًا وبعد دقائق تبدأ فى الصراخ ثم ينتهى الأمر بركضك عاريًا فى الطريق بمقلاة على رأسك لتنظم المرور .. أنا أعلم تلك الأمور جيدًا .. آخر عائلة سكنت الفيللا جننت وأنت ستلحق بهم .. وربما مستك تلك الأرواح الموجودة بالفيللا وأصبحت أحدهم بالفعل .. ربما هذا مبرر نجاتك الوحيد من تلك المذبحة .

كان يقولها بسخرية غاضبة ولكننى بالفعل مازلت أشعر بذلك الانقباض بداخلى وبذلك الهلع يزحف فى صدرى ويبدأ فى احتلال خلاياى .

* لابد أنك رأيت شيئا مروعا بالداخل .. لا أريد أن أعرفه ولكنك أشبه بمن أصيب بانهيار عصبى .. إنك حتى لا تتألم من ذلك الجرح الغائر .

نعم .. ما رأيته بالداخل .. كان شيئا خارقًا للمألوف بالفعل .

لقد تفرقت أنا والجنود بالمكان نبحث عن العائلة .. وأكاد أسمع الآن صرخة سيد فتيحى جندى الدورية وهى تدوى فى أذنى وأنا أركض باحثًا عنه لأجد نصفه الأعلى فقط على الأرض وتتدلى منه بقايا أمعائه وهى تعبث كالأفاعى بينما الدماء تفيض بلا توقف .

* إنهم مجرد أسرة ساذجة من القاهريين الذين نصب عليهم ذلك السمسار الحقير وأجّر لهم الفيللا اللعينة .. ذلك الوغد .. سامزقه بيدى و ...

رن هاتفه المحمول ليرحمنى من ثرثرته ويدعنى لتلك الذكريات الرهيبة ، فالتقطه بسرعة ليرد على المكالمة :

* نعم .. إنه معى يا سيدى .. سوف آخذه لأقرب مستشفى .. نعم .. لم أستطع الانتظار حتى تأتى سيارة الإسعاف .. نحن فى مجاهل العجمى وسيارة الإسعاف سوف تأخذ قرنًا للوصول لمكاننا ..

لا أعرف لماذا أحرق الفيللا ولكنه يبدو مصدومًا لغاية .. ماذا .. لا يستطيعون إطفاء النيران ؟ ما الذى تعنيه ؟ هل هناك مواد قابلة للاشتعال .. مواد بترولية أم .. لا .. لا إننى فقط أخمن يا سيدى .

وفجأة مرت بجانبنا بالاتجاه المعاكس سيارة مطافئ هائلة الحجم بسرعة صاروخية أجفلتنا .

أريد حسنى وأحمد البدرى أشلاؤهما كانت تتناثر على الدرج تتلهم بسرعة جهنمية حتى قبل أن يصرخوا .

خيال أسود هائل الحجم ثنائى الأبعاد كان يتحرك على الجدار بسرعة البرق وجعل شعر رأسى ينتفض فى فزع .. كنت ذلك قبل أن أرى تلك السيدة تصرخ وهى تشير للجدار ..

وعلى الجدار كان الرقم ستة يكتب على الحائط بخطوط دامية سميكة ثم التفت نحو السيدة لأجدها قد اختفت تمامًا .. وأمسكت بمسدسى بيد ترتجف متجهًا نحو تلك الغرفة فى نهاية الممر وأصرخ فى اللاسلكى بأعصاب متهاوية أطلب النجدة ولكن لا مجيب !

التفت نحو أيمن الذى كان قد أنهى المكالمة :

- ما الذى تعنيه بأنهم لا يستطيعون إطفاء النيران ؟

هز كتفيه بحيرة قائلا :

* لا أعرف ما الذى يحدث ولكنهم الآن يحاولون استخدام الرغوة لأن النيران لا تريد أن تتوقف .

لقد ذهبت للغرفة فى نهاية الممر والله أعلم بحالتى وقتها .. كنت على وشك فقدان الوعى من الفزع ولكننى قاومت .. كان يجب أن أنقذ أى شخص وإلا ضاعت أرواح جنودى هباء.

ومرت سيارة مطافئ ثالثة بجانبنا وقفزت تلك الفكرة الغريبة بعقلى .

- أيمن .. يجب أن نعود حالا.

* ما الذى تعنيه .. ألن يتوقف مسلسل جنونك ؟

- أرجوك .. استدر بالسيارة الآن .. أعتقد أننى أعرف ما يحدث بالفعل.

* إننى لن ..

قاطعته صارخًا ، وأنا ألصق مسدسى برأسه :

- لن أطلب منك ذلك مرة أخرى ، عد بالسيارة وإلا أقسم أننى سوف أفرغه برأسك .

* حسنًا .. حسنًا .. اهدأ قليلا سوف أعود بك .. فقط اهدأ.

قالها وهو يستدير بالسيارة عائدا نحو الفيللا ويقول شيئا ما .. ولكننى أتجاهله للمرة الألف وذلك المشهد يعبث أمام عينى .. لزوجة وهى معلقة فى الهواء كالدمية بفعل قوى غامضة .. مقطوعة الذراعين وتهمس بصوت كالفحيح بآخر قطرات قوتها (النار .. النار تقتل كل الشرور) .. وتفاديت بعدها تلك البلطة الضخمة وهى تكاد تحطم رأسى .. كان يمسكها ذلك الرجل .. نصف رأسه كان محطمًا تمامًا .. كتلة من اللحم والعظام الممزقة .. ولكن شيئا ما يعطيه الحياة ..

تفاديت ضربة ثانية وثالثة ولكن الرابعة أصابتنى بجرح ضخم .. والضربة الخامسة كادت تطيح بذراعى ولم يتوقف إلا بعد أن أطلقت رصاص على بقايا رأسه .. ومن بين ما تبقى من شفتيه أسمعه صرخ والدماء تتناثر من فمه .. (النار .. فلتحرق كل تلك الشرور) .

كان كل شيء يشير إلى الحل .. تلك الفيللا الملعونة يجب أن تحترق . لذلك اتجهت نحو المطبخ لأفرغ أسطوانة الغاز ..

وبعدها لا أتذكر سوى تلك الصرخة الجهنمية .. صرختـه وهو يموت.

* حسنا .. ها هى ذى الفيللا ولكننى اقسم أننى لن أسامحك أبدا على تهديدك لى بالمسدس .. و ... ولكن ما الذى يحدث هنا ؟

توقفت السيارة وقفزت منها متناسيا جرحى الدامى ، كنت أسمع صراخ بعض جنود الإطفاء والنيران تلتصق بهم وهم يركضون بهلع .. النار كانت قد تضخمت بشكل غريب !

ركضت نحو قائد القوة الإطفائية كان شاحب الوجه كالجثة وهو يتطلع فى حيرة وهلع لما يحدث ، قال والكلمات ترتجف على شفتيه :

- النار لا تتوقف .. جربنا كل شيء ولكنها لا تتوقف .. إنها تتسع فى دائرة كاملة حول المنزل .. أنا .. أنا لا .. لا أعرف ما الذى يحدث بحق الجحيم.

النار بالفعل كانت قد تضاعفت بصورة غريبة وبدا وكأنها تنسكب على الأرض كالحمم البركانية وتأكل كل شيء فى طريقها ولحظتها التمعت الفكرة فى ذهنى ..

الآن أعرف كل شيء ..

أعرف لماذا لم يقتلنى .. ولماذا كان يحتاج لستة أرواح للهرب ..

الرجل وزوجته .. الخادمة وجنودى ..

كان يحتاج لى .. كان يحركنى كالدمية نحو هدفه ..

نعم .. أعرف أن الصرخة التى سمعتها عندما فجرت الفيللا لم تكن صرخته وهو يموت .. بل صرخة سعادته بالحرية ..

* هذا جنون حقيقى .. ما الذى يحدث هنا ؟

قالها أيمن بعدم تصديق ولكننى انهرت أرضا صارخا فى ألم :

- النار تقتل كل الشرور .. بالنسبة له نحن كل الشرور .. نحن البشر !!

تطلع لى ثم انتقلت عيناه نحو دائرة النار التى كانت تكبر وتضخم ..

ولا تتوقف أبدا .

تمت بحمد الله

جيدة ومثيرة ومحكمة يا عم أحمد وإن كنت أراك تمويًا أكثر من اللازم .. وضعتنى منذ البداية فى الذروة وهذه طريقة تدل على تحكم لا بأس به فى السرد ، مع لمحات من الجو المخيف تتضح فيما بعد فى سياق القصة .. هناك نقطة تنوير واضحة فى النهاية .. أنت تسيطر على أدواتك جيدًا ، وإن كنت آخذ عليك بعض أخطاء لغوية مثل (فتحت عيناى) واستعمال علامات غريبة مثل (*) و(-) للتمييز بين المتحدثين ..

أعتقد أننى سأجرب قصة أخرى لك هنا .. المشكلة أن ثلاث القصص التالية طويلة أكثر من اللازم .. سأقدم نصف قصتك (جسر مصاصى الدماء) العنوان مثير جدًا على فكرة واستكملها فى الكتيب القادم ، ورجو ألا أنسى كالعادة .. على من أحبو القصة أن يدعو الله تعالى ألا أفقد الباقى فى عملية تهيئة خرقاء للقرص الصلب !!

جسر مصاصى الدماء

تأليف أحمد عرفة

Ahmedarafa20000@hotmail.com

الثانية صباحًا ..

لكن الجو ليس مُظلمًا ؛ لأن القمر كان هناك يرسل نوره فضى على المكان ويكشف معظم ملامحه .. وكل مرة أنظر ها إلى القمر لا أعرف لماذا تتخيله وجهًا ضخمًا يلقى نظرات غضة كمصيرى !

أقف وحيدًا على الجسر الذى يربط بين قريتين لا أعرفهما لأننى ه منذ ساعات بين التلال أبحث عن شخص لينقذنى ولكننى فشلت رلك ، فلم يعبر أحد بين تلك التلال ولم يأت بشرى لهذا الجسر ى وجدته بعد أن قربت سيقانى على الانهيار ..

من المفروض أن ذلك الجسر هو نقطة الاتصال الوحيدة بين ريتين ؛ لذلك يجب أن تمر أى سيارة على الأقل .. ولكن يوجد أى شىء !

عانى تتلوى من فرط خوفها والإجهاد يستعمر جسدى .. هد شامل فى كل أعضائى .

أعتقد أننى لو نظرت إلى المـرآة الآن فسأرى وجهى كوجوه الأشباح .. شاحبًا .. مخيفًا .. وتحت العينين انتفاخات بارزة تبدو كالوسائد ..

ولكن بينما أتطلع فى يأس إلى الطريق إذ لمحت أضواء إحدى السيارات تقترب من الجسر .. شعرت بارتجافة من السعادة تصعق جسدى والقلب كل خمولى وتعبى إلى حماس غريق يلقى إليه بطوق النجاة ..

إنها شاحنة سوداء .. متوسطة الحجم .. تلمس عجلاتها أول أمتار الجسر .. أشرت لقائدها فى جنون :

- توقف .. بالله عليك توقف .. »

إنها فرصتى الوحيدة ولن أدعها تضيع ..

لم أفعل إشارة (الأوتوستوب) .. إنها للمرفهين الذين يقفون فى طريق تمر به عشرات السيارات .. أما فى حالتى تلك فيجب أن أصرخ أو أتوقف أمام الشاحنة فى حركة انتحارية لإجبار قائدها على التوقف ، ولكنها لحسن الحظ توقفت بجانبى بفرملة قوية قبل أن أقوم بأية حركة يائسة ..

فتحت الباب بلهفة جانع يفتح ثلاجة ضخمة وجلست جوار السائق وابتسامتى البلهاء تملأ وجهى ..

- شكرا للغاية .. إننى لا أستطيع أن .. »

لطمنى بصوت جاف :

- أغلق الباب أولاً .. »

تمتمت فى إحراج وأنا أغلق الباب وعبارات الشكر تتكتم فى حلقى .. ولكننى بالرغم من لهجته الحادة إلا أننى ينتابنى الآن شعور لذيذ بالاسترخاء بعد كل ذلك القدر من التوتر والإرهاق ..

ألقى على وجهى نظرة حادة ، ثم قال :

- ما الذى جاء بك إلى هنا !! »

كرر سؤاله فى لهجة عجيبة وكأنه يبصق الكلمات . نظرت إلى وجهه فوجدته شابًا لا يتجاوز الخامسة والثلاثين .. ملامحه حادة وكأنه تمثال .. أنف رفيع مدبب .. وجه ذو عظام بارزة وعينين ضيقتين .. إنها أقرب لملامح المجرمين التقليديين الذين نراهم فى الجرائد يوميًا ..

- هل هناك مشكلة فى أذنك ؟ »

قلت من شرودى فى ملامحه ، وقلت فى هدوء :

- لا توجد مشكلة فى أذنى .. إننى أسمع جيدًا للأسف .. »

- إذن لماذا لا تجيب سؤالى ؟ »

لا أعرف لماذا يعاملنى بكل هذا العداء ..

ـ « لقد ضللت الطريق بين التلال ولم أجد أمامى سوى الجسر .. »

نظرة أغرب من لهجته يلقيها على عنقى ثم تلك الجملة الذكية :

ـ « أنت لست من أهل البلدة إذن ! »

ـ « بمعنى أننى ثانه بين التلال أننى لا أعرف المنطقة ومعنى ذلك أيضا أننى لست من تلك البلدة .. »

ـ « كنت متأكدا من ذلك .. »

صمت لثوان وكأنه يتوقع تساؤلاً منى ولكننى لم أتكلم فدار وجهه نحوى لثانية ثم أعاده ليحدق فى الطريق قائلا بلهجة شبه هادئة هذه المرة :

ـ « اتعلم لماذا تأكدت أنك لست من أهل البلدة ؟ لأنه لا يوجد فى البلدة ذلك الشخص الذى لديه الجرأة الكافية ليأتى إلى هذا الجسر .. »

برغم أننى كنت أفضل عدم مواصلة الحديث إلا أن ذلك التساؤل خرج رغما عنى :

ـ « وما السبب فى ذلك ؟ هل الجسر ضعيف مثلاً أو .. »

ولكنه قاطعنى وكلماته الغريبة تتوالى :

ـ « هل تؤمن بوجود مصاصى الدماء ؟! »

* * *

يقولون إن تلك الحادثة كانت منذ أسبوع تقريبا ..

شاحنة سوداء مثل التى أركبها الآن تمر على نفس الجسر فى طريقها إلى القرية المجاورة ..

وقرب منتصف الجسر شهق قائدها فى ألم وشعر وكأن خنجرا حادا ينغرس فى قلبه والهواء لا يجد طريقه إلى صدره بينما الألم يزحف فى سرعة جهنمية من صدره إلى أطرافه ..

لقد أصيب بأزمة قلبية ..

ومن فرط الألم أظلمت الدنيا أمام عينيه لثانية أو أقل كانت كافية لترتجف عجلة القيادة بين يديه ثم تفلت منه ..

اهتزت الشاحنة فى شدة ثم انحرفت لترتطم بالحاجز المعدنى للجسر ، ثم عادت للطريق لتنحرف مجددا وتغادر حدود الطريق بعد أن فقد قائدها السيطرة تماما عليها وهو يقبض على صدره بكلتا يديه محاولاً إيقاف الألم أو التنفس وتلك الرغوة البيضاء تتطاير من جانب فمه ..

وفى هذه الثانية فقدت الشاحنة اتزانها تماما .. ارتطم جانبها الأيسر بالحاجز وارتفعت عجلاتها لتفقد ارتباطها بالأرض ثم انقلبت فى الهواء لتسقط على ظهرها ..

وفى نفس الوقت تقريبًا كان رجل وابنه الصغير الذى لا يتجاوز العاشرة فى سيارة تسير خلف الشاحنة وتفصلهم عنها مسافة مائتى متر تقريبًا ..

ورأى الأب ما حدث فزاد من سرعته ليحاول إنقاذ ذلك المسكين .. وبينما يقترب بسيارته إذ رأى ذلك الرجل المتشح بالسواد وهو يجذب الجسد المصاب من نافذة الشاحنة ..

وبلغت السيارة مكان الحادث وغادرها الأب وولده فوجدا ذلك المنقذ يميل برأسه على جسد الرجل ويختبر نبضه ..

«.. ما مدى إصابته ؟! »

قالها الأب ثم .. ثم التفت إليهما ذلك الرجل الغامض .. أدار رأسه فى سرعة خرافية وكأنه فوجئ بهما .. وتوقف الأب وابنه .. تجمدا فى مكانيهما مشدوهين ..

لم يكذبا الاقتراب من الرجل ، فما شاهداه كان يفوق الوصف!

ذلك الرجل لم يكن يفحص النبض بل كان يفعل شيئًا آخر .. وجهه شاحب .. عيناه واسعتان لدرجة غريبة يغمرهما بياض شاهق وفى منتصفهما نقطتان حمراوان تحدقان فيهما ..

ومن فمه برز النابان فى توحش .. على ذقنه وحول فمه تسيل الدماء القانية .. بينما فى عنق الرجل المصاب كان الجرح

ضخمًا .. مجرد كتلة دموية من اللحم الممزق وجسده ينتفض فى مشهد مروع ..

وبعد تلك اللحظة التى شاهدا فيها كل ذلك الرعب .. لم يكن هناك سوى الفرار ..

الطفل يعدو بأقصى طاقة فى جسده الصغير وهو يطلق صرخات مكتومة مقبضة والأب خلفه وهو يتمنى ألا يطاردهما ذلك الشىء ..

«.. اتجه نحو السيارة .. بسرعة .. »

قالها الأب صارخًا لطفله الذى لم يكن بحاجة لحثه على ذلك لأنه بلغ السيارة بالفعل وفتح بابها ولحق به الأب وهو ينظر خلفه نحو ذلك الرجل فوجده ما زال بجانب الجثة يلعق الدماء التى تحيط بفمه ، لحمد الله أنه لم يطاردهما واتخذ مكانه أمام عجلة القيادة وابنه بجانبه وأدار المحرك لينطلق بالسيارة ويتجاوز ذلك الرجل ولكن ..

تحطم زجاج السيارة فجأة وتناثرت الشظايا تجرح وجهيهما ، ذلك الكتلة من السواد تهبط على مقدمة السيارة وتفاجئهما ..

حملة الرجل السوداء تطير كأجنحة الخفافيش وهو يقبض على عنق الأب ويجذبه من السيارة ..

«.. أبى ! »

فاتها الابن فى توسل .. هتاف أقرب إلى الصراخ وهو يمد يديه الصغيرتين محاولاً إمساك جسد والده ..

كيف قطع ذلك اللعين المسافة فى أقل من ثانية ؟!

لقد كان هناك بجانب الشاحنة .. إنه يبتسم تلك الابتسامة الشيطانية .. أو لا يبتسم ولكنه يفتح فمه الدموى فى جوع ..

السيارة تفقد اتجاهها .. والابن ما زال يصرخ .. والأب يستسلم لتلك الأنياب التى انغرست فى عنقه وهى تجذبه للخلف .. والعذاب الهائل الذى يجتاح جسده ..

ولكنه هتف بآخر قوة فى جسده :

.. اقفز من السيارة .. »

وللأسف .. كان ذلك متأخرًا ، فقد حطمت السيارة حاجز الجسر واندفعت فى الهواء فى طريقها نحو النهر .. والكيان الأسود الغامض يجذب جسد الأب ويطير فاردًا حرملته ليهبطا على أرض الجسر وما زالت أنيابه منغرسة بالعنق بينما السيارة تسقط فى النهر وتهبط للأعماق ..

وشاهد أحد الأشخاص السيارة وهى تسقط فى النهر أثناء عبوره للممرات الموجودة بين التلال ، فأخذ يعدو بأقصى سرعته لإحضار مساعدة من أهل القرية لإنقاذ من بداخل السيارة ..

وذهب خمسة رجال للجسر ..

ولم يعودوا !

وانتظرهم الجميع .. ساعة .. ساعتين .. ثلاثة .. ولكن بلا أية نتيجة ..

وخرجت فى أثرهم مجموعة أخرى .. ولكنهم هذه المرة سلحين بأسلحتهم البيضاء وعصيهم ، بعد أن أشار أحد الرجال إلى احتمال وجود بعض قطاع الطرق ..

ذهبوا فى إحدى السيارات .. واختفوا تمامًا .. لم يرهم أى شخص بعد ذلك .. وفى الصباح تشجع الجميع .. وذهبوا للجسر .. ووجدوا السيارة الخاصة برجالهم مقلوبة على الجسر .. ووجدوا الأسلحة والعصى .. ولكن لا يوجد أثر للرجال .. أو حتى لجثثهم ..

وبحثوا فى التلال .. والنتيجة صفر . ثم غطس البعض فى قاع النهر كحل أخير .. ولم يجدوا سوى السيارة الأولى وبداخلها جثة الطفل الذى مات غرقًا ..

وفى اليومين التاليين توالى اختفاء من يعبر الجسر ليلاً . وتناثرت الشائعات أو الحقائق .. فلا أحد يعلم بالضبط ؛ لأنه لا يوجد من ينفى أو يؤكد ..

قال البعض إنهم شاهدوا شاحنة سوداء تصطدم بأية سيارة تقابلها على الجسر ليلاً وتدفعها للسقوط فى النهر .. وجاءت أنباء من القرية المجاورة عن مجموعة من الرجال يبثون الذعر فى قلوب أهل القرية .. ليسوا لصوصًا أو مجرمين عاديين .. بل أقرب للضواري .. يهاجمون الضحايا ويمتصون دماءهم بلا رحمة ..

وسخر البعض من كل ذلك .. وقرروا أن يذهبوا للجسر ليلاً .. كانوا بعض مفتولى العضلات الذين لم يصدقوا خوف الآخرين ، ولم يريدوا أن يصدقوا خوفهم .. وذهبوا هناك .. والنتيجة معروفة .. حتى تلاشت السخرية إلى الأبد ..

لقد تأكدوا أن هناك شيئًا مجهولاً على الجسر .. شيئًا أكبر من الفكرة المجردة أنه ربما يكون ذلك أحد السفاحين أو بعض اللصوص ..

فكرة مخيفة كانت تتجسم فى عقولهم لشىء شبه بشرى جاء فى ليلة سوداء إلى الجسر وفى تلك الليلة هاجم رجلين وحولهما إلى مصاصى دماء ..

أحدهما يقود شاحنته .. يعبث مع العابرين ويحطم سياراتهم ثم يقضى عليهم .. والآخر يكمن هناك فى مكان ما بجانب الجسر ينتظر ضحيته فى صبر ..

والاثنان يشتركان فى نفس الملامح ..

الأنياب الحادة المتشوقة للدماء .. وذلك الجرح العميق فى عنقيهما ..

* * *

« .. هذا ما يقولون إنه حدث ! »

قالها السائق بلهجة لامبالية بعد أن زالت النبرة العدوانية من كلماته ثم عاود نظرته المتجمدة للطريق .. تساءلت :

« .. ولم يعبر أحد الجسر حيًا بعد ذلك ؟! »

« .. إنهم يؤكدون ذلك .. »

« .. وكيف يذهبون إلى القرية المجاورة ؟ »

« .. يقطعون طريقًا طويلاً جدًا يخترق التلال .. »

« .. ولكننى لا أفهم .. كيف تعرف تلك القصة بتلك التفاصيل وتعبر الجسر ؟ »

قطب حاجبيه وهو يقول فى شبه ضيق :

« .. لأننى لا أصدق هذه الخرافات .. هل تعتقد أننى على استعداد لإضاعة ساعة كاملة فى الالتفاف حول مجموعة من التلال ، فى حين أننى أستطيع قطع المسافة للقرية المجاورة فى ربع الساعة .. إننى مرتبط بمواعيد للتسليم .. »

الآن بدأت أكون فكرة ما عن ذلك السائق .. إنه ينقل شحنة ما إلى إحدى القرى .. ويبدو أنه هو أيضًا ليس من سكان المنطقة مثلى ..

ولكننى أتخيله جالسًا فى أحد المقاهى لاحتساء كوب من الشاى قبل أن يكمل رحلته .. وهناك يعلم أحد العجائز أنه سيسلك طريق الجسر فينصحه بألا يفعل ذلك ويحكى له تلك القصة الطويلة التى سمعتها منذ قليل .. وينهيها بجملة تحذيرية يحاول أن يضع بها ما يكفى من الرعب لإخافة السائق ..

« إياك والجسر .. لن تعبره حيًا .. »

ثم وجد السائق فى شخصى المتواضع الفرصة لكى يخيفنى كما أخافه العجوز من قبل .. ولكننى بالطبع لم أخف لأننى ..

كلمات السائق تقطع أفكارى :

« كما أننا قطعنا مسافة لا بأس بها من الجسر .. هل رأيت أى مساس دماء ؟! كل هذا هراء ! »

الجسر لا يريد أن ينتهى .. والرياح تهاجمنا من نوافذ الشاحنة المحطمة تمامًا .. رياح جافة دافئة لا تريد أن تخفف من تلك الحرارة الصيفية التى تخنقنا ..

التفت نحو السائق .. كنت بصدد أن أقول شيئًا ما .. ولكن نظرة منى لعنقه جعلتنى أنتفض ..

لقد حرك الهواء ياقة معطفه فانزاحت لتكشف ذلك الجزء فى عنقه .. ورأيت ذلك الجرح الغائر وكأنه يلتمع فى الظلام !

أدرت وجهى سريعًا حتى لا يلاحظ نظرتى له ، ومشاعر غريبة تتصارع بداخلى ثم كان هذا التساؤل :

« تقول إن هناك ذلك ال .. مساس الدماء .. هنا على الجسر ؟! »

« لست أنا الذى أقول .. بل القرويون هنا .. »

« ويقود شاحنة سوداء مثل شاحنتك هذه .. و .. لديه ذلك الجرح فى عنقه ؟! »

أومأ برأسه مبتسمًا وكأنه سعيد لأنه استطاع إخافتى .. ولكن فكرة ما غريبة لأول مرة تحتل عقلى .. أفكر فى الخوف .. التساؤل يرتجف فى أعماقى .. تساؤل متوتر كأعصابى عن كنه ذلك الشعور المسمى بالخوف ..

حتى ولو كان الرجل قويًا وشجاعًا إلى أقصى درجة .. ألا يدركه الخوف ؟! ألا يدركنى أنا الخوف ؟! إننى أعرف الشىء الذى يخيفنى .. إنه الموت ..

وأخاف أن يكون ذلك الرجل الباسم بجوارى مصاص دماء ، لأن ذلك لو كان صحيحًا فسيكون الصراع رهيبًا ..

نظرت له .. أتفحص ذلك الجرح .. هل يبدو وكأن شخصًا ما قضم عنقه أو ...

« .. مصاص دماء ! »

« .. ماذا قلت ؟! »

« .. أنت تعتقد أننى مصاص دماء .. أليس كذلك ؟! »

لم أجب .. وكأن هذا اللعين يقرأ أفكارى ويلمس مخاوفى ..

مد يده اليمنى يتحسس عنقه .. بالضبط فى المكان الذى يوجد به الجرح .. وهو يضيف :

« .. نعم هناك جرح غائر فى عنقى وأقود شاحنة سوداء ، ولكن .. هل هذا يؤكد حقيقة كونى مصاص دماء ؟! »

نظرت له فى شك .. ربما كل ما يحدث حلقة صغيرة فى سلسلة لا تريد أن تنتهى من العبث ..

« .. لماذا لا تجيب ؟! هل تخاف منى بالفعل ؟! إننى أمزح .. »

أحاول أن أقول أى شىء .. فقط تصدر منى ابتسامة سخيف صفراء .. وهزة صغيرة لعنقى لا تعنى أى شىء ..

أخذ يضحك ضحكة معدنية :

« .. أو أننى لا أمزح .. ولكن فى هذه الحالة يجب أن أقتلك بسرعة لأن الوقت بدأ ينفد .. »

إنه لا يعطينى أى فرصة للتفكير !

لماذا لا أتكلم ؟! ولماذا تغير صوته هكذا ؟! أم أننى أتخيل حدوث ذلك ؟!

والسؤال الأهم .. هل بدأت أخاف بالفعل ؟!

وقطعت تلك الشاحنة القادمة خلفى تساؤلاتى .. ظهرت فجأة وسرعتها تتزايد .. بينما الغبار يتطاير حولها وكأنه يدفعها ، وأخشاب الجسر تتقافز فى تتابع مجنون ..

« .. كيف ظهرت تلك الشاحنة فجأة ؟! »

السائق صار وجهه شاحبًا وكأن الدماء قد تبخرت من جسده ، بينما يداه ترتعدان على عجلة القيادة ، وعيناه تنظران إلى المرآة الجانبية فى ترقب ..

نظراتى تتنقل بين وجه السائق والشاحنة خلفنا .. ثم سؤالى الثانى للسائق وكأنه فى حالة تسمح بتلقى الأسئلة :

- هل يمكن أن تكون هذه الشاحنة هى التى يتحدث عنها الناس ؟! -

كل ثقة السائق وشجاعته اللذين كان يرعبانى منذ قليل تحولا فجأة إلى توتر وقلق لا ينتهى وهو يهتف فى انفعال :

- لا أعرف ! لا أعرف ! -

زجاج تلك الشاحنة لا يعكس شيئًا سوى السواد .. ولونها .. ما لونها بالضبط ؟! إننى لا أستطيع تحديده فى هذا الظلام ..

كلمات السائق تؤكد حقيقة كنت أخشاها ..

- أعتقد أنها ستصدمنا .. -

- هل تظن أنها قادمة من أجلنا ؟! -

- نعم ! -

وأنا لا أعرف لماذا صار الجسر ضيقًا هكذا .. اعتقدت أنه يضيق ويضيق ويدفع تلك الشاحنة إلى الاصطدام بنا والنتيجة لن تكون فى صالحنا على الإطلاق ..

البقية فى الكتيب القادم

الآن نلتقى مع صديق كويتى عزيز مخضرم هو محمد على البحراني الذى أعرفه باسم (الجاثوم) .. إنه من المهتمين المخلصين لأدب الرعب ، وقد أرسل لى هذه القصص (وإن لم تكن من هذا النوع من الأدب) .. كما أنه قام مع مجموعة من أصدقائه بعمل إعداد درامى ممتع لأسطورة مصاص الدماء ، وقاموا بالتمثيل والإخراج والتصوير والمونتاج . أرسل لى هذا الـ DVD وسوف أعلق عليه بالتفصيل ، إن السينما بدورها فن يجمع الفنون كلها ، والعمل ككل يزيد من مساحة فانتازيا بلا شك :

إيه يا صبر

* * *

و متى لم تكن حياتى مكروهة ؟

* * *

إيه يا صبر ..

تسألنى لم أكره حياتى ؟

ومتى لم تكن حياتى مكروهة ؟

أحين حكمنى عذاب قدر محتوم ؟

وفقدت رائحة أزهار الياسمين من هذه الدنيا ..

وتجرعت مرغما تلك السموم ..

لتودع عيناى أحلامًا وردية كنت أرافقها ..

عذبتها كوابيس سوداء ..

وقتلتها حروف كلمة عذاب ..

وصلبها جاثوم .

* * *

وتظل تسألنى لم أكره حياتى ؟

* * *

إيه يا صبر ..

ومتى لم تكن حياتى مكروهة ؟

هل حين ودعت سمائى شمس مشرقة ..

أم حين انتزعوا منها بقيا نجوم ..

ليزرعوا بها ليل السواد ..

وليعلنوا أن الظلام فيها قد ساد ..

آه يا صبر .. آآآه يا صبر

ظلت مطرقة الأيام تطرق مساميرها على قلبى ..

تطرق وتطرق ..

وتظل تطرق دون هوادة

لتجبرنى على الهروب ..

من ألف تنين ألم ..

من دون جواد !

* * *

وتظل تسألنى لم أكره حياتى ؟

* * *

إيه يا صبر ..

ومتى لم تكن حياتى مكروهة ؟

وأنا أرى أن الألم لى رفيق ..

والحزن لبيت قلبى جار ..

وببحر الغربة أنا غريق ..

وعالمى علىّ جار ..

وأظل بسجنى أحترق وأحترق ..

لفراق الصديق ..

اتقدت بروحى ألف نار و نار ..

رباه ! آه يا رباه !

هى أمنية أريدها ..

ليس أريد منك يا دنياى ..

سوى الفرار ..

* * *

وتظل تسألنى لم أكره حياتى ؟

* * *

إيه يا صبر ..

إيه يا ولدى ..

ومتى لم تكن حياتى مكروهة ؟

هل حين حلمى من عينى قد فر ؟

وطلبوا منى أن أدفنك بيدى ..

وأغلق عليك القبر ؟

لأدفن معك يا بنى قلبى ..

بقرار أعمق بئر ..

ولتتركنى لجحيم مستعر ..

آه يا صبر .. آه يا بنى ..

عساك تنعم هناك بعالم أجمل ..

من هذا العالم المر ..

ولتتركنا لترحل ..

مخلفا وراءك ..

أبا محطمًا ..

وظلامًا دامسًا ..

وحرقة الزفرات ..

لبيت تملؤه الآهات ..

وروح يتلاعب بها الزمن ..

وبقايا ابتسامة فرح ..

كانت ها هنا ..

ثم لم تكن .

(تمـــــت)

محمد على البحراني

الكويت

هى قصيدة نثرية أكثر منها قصة .. راقت لى العبارة المحورية (وظل تسألنى لم أكره حياتى ؟) .. وإن كان ظهور موضوع وفاة الولد تأخر كثيرًا وظهر فجأة .. كنت أفضل أن تعطينى بعض النذر منذ البداية .. بعض التلميحات التى لا أفهمها إلا عندما أقرأ القصيدة ثانية ..

وبما أن نسمة واحدة لا تكفى لتحديد اتجاه الريح ، فإننى أقدم هذه القصة القصيرة التى تدعى (ثلاثة أيام) وقد راقت لى كثيرًا .. لاحظ الترتيب الزمنى المثير وهو ما يذكرنى بفيلم فرنسى اسمه Irreversible أو الخلط العجيب للأزمنة فى فيلم Prestige و Memento ..

ثلاثة أيام

يوم الثلاثاء ..

ثالث يوم ..

إنه اليوم الثالث .. واليوم الثالث يحمل دوما طابعا مقيتا للمرء ومن السهل أن يدرك هذا من هو بحالتى .. أشعر أن جدران الزنزانة السوداء تضيق وتضيق لتعتصر روحى قبل جسدى .. ودموع عينى جفت تمامًا ولم أعد أملك مقدرة على ذرف دموع جديدة .. يبدو أننى بكيت كثيرًا .. كثيرًا جدًا .. كثيرًا حقًا !

ويبدو أن بئر مشاعرى قد جف تمامًا ولم أعد أشعر بشىء إن هى إلا مرارة الانتظار .. انتظار عقاب دون جريمة ارتكبتها وهأنا أقابله .. إن العقاب لا يهمنى والموت أصبح لا يعنينى البتة .. إننى ميت منذ أدخلت هذه الزنزانة بهذا الرداء الأحمر القبيح الذى أشك أن إبليس ارتداه قبلى واكتسب لونه الأحمر منه ..

لكن ما يقتلنى ألف مرة هو السبب .. معرفة سبب هذه العقوبة .. أن المرء لا يُعدم كل يوم بانتأكيد لذلك فحين يخوض هذه التجربة الجديدة بحياته من حقه البشرى أن يعرف سببها .. من حقه أن يفتح ذلك الكتاب المغلق المسمى بالمجهول ولا يتعذب بالمزيد من النظر إلى غلافه الأسود الغامض .

ولكن الوقت لا يمهلنى .. لم يمهلنى .. ولن يمهلنى ..

إنه اليوم الثالث .. واليوم الثالث يعنى مرور ثلاثة أيام ها هنا ..

إنه اليوم الثالث .. واليوم الثالث يعنى اليوم الأخير ..

ببساطة أكثر يعنى النهاية ..

ينفتح باب الزنزانة ليظهر خلفه وجه شاويش لا يبدو من وجهه المكفهر أنه قادم ليقدم لى وجبة الطعام المعتادة .. إذن لقد حان الأوان ..

« إنه وقت التنفيذ يا صادق .. لقد حان الأوان .. » ..

نظرة خالية من أى انفعال منى تظل من علٍ .. وإن كنت لا أنكر أنها تخفى رياحًا من الهلع تكاد تقتلعها ..

« لا حول و لا قوة إلا بالله العظيم .. » يقولها متمتمًا ومشفقًا ثم يتابط ذراعى ويقتادنى نحو العالم الآخر ..

رجلاى ترتجفان .. والقشعريرة تمر بظهرى كمرور تيارات كهربية شنيعة .. أسقط بين حين وآخر ليحملونى مرة أخرى .. إنه الموت إذن .. وأمل الاستيقاظ من كابوس أضحى سخفًا حقيقيًا .. وحتى لو كان كابوسًا فيبدو أننى استوطنت عالم الكوابيس ولن أغادره أبدًا ..

أريد أن أعرف .. فقط أريد أن أعرف !

« قل ما تتمناه قبل التنفيذ يا صادق .. »

« أريد أن أعرف .. لماذا ؟ »

« هذا الكلام لا طائل من ورائه .. وقد تحدثنا بما فيه الكفاية ..

إنه المحراب يا صادق .. صل ركعتين واطلب من ربك المغفرة .. »

أومئ برأسى مطأطئًا واتجه بذات الخطوات الثقيلة .. لو ينتزعون الأصفاد الحديدية الثقيلة هذه من رجلى لكنت بحال أفضل ..

« لو تنتزعون هذه الأصفاد الحديدة من رجلى لكنت بحال أفضل .. » قلتها هذه المرة بلسانى لا صدرى ، وعيناى الغائرتان تنطقان بما لا ينطقه ألف لسان .. قلتها متلعثمًا من فرط ارتجاف شفتى اللتين هما ليسا الشىء الوحيد بجسمى الذى يرتجف ..

« لا أصفاد على رجليك يا صادق .. ولا حتى على يديك .. »

كنت أتوقع هذا .. إن ما أشعر به لا يعنى أن يكونوا هم سببه .. وإلا لكانت الأصفاد التى تكبل جسدى كله بسببهم .. لكانت الأصفاد التى تكبل عقلى بسببهم .. لكانت الأصفاد التى تكبل ذاتى كلها بسببهم .

أتوضأ لتتلمس يداى نقاء الماء ويلمس الماء جسدى لآخر مرة بحياتى .. وأتجه لبقعة من النور أصلى لإلهى بها ..

أدعوه لتحقيق طلب واحد .. أريد أن أعرف فقط .. أعرف ..

أغوص بأعماق نورانية بالصلاة لم أعرفها قط بحياتى .. تنطق روحى بكل حرف أقوله قبل أن ينطقه لسانى .. بل أشعر أن جسدى فنى و روحى هى التى تركع وتسجد .. إن اقتراب اللقاء هو أكثر شىء قادر على أن يجعلك تعرف معنى اللقاء ..

المغفرة .. هى ما أرجوه ..

يا إلهى !

إنه اليوم الثالث ..

واليوم الثالث بدون أى تعقيدات هو يوم التنفيذ ..

يكبلون يدى بحبل متين وراء ظهرى .. ويوقفوننى على منصة للتهلية .. والشمس تشهد سقوط شخص آخر وكأنها تتشمت بى لأنى لست نجمًا خالدًا مثلها ..

أرى نظرات الناس الغاضبة الحاقدة لى فى ساحة التنفيذ .. ولا أعرف سببها .. ليتنى أعرف سبب حقدهم كى أحقد على هذه الذات التى يحقدون عليها ..

المزيد من نظرات الحقد والكره .. فلو كانت أنفاسهم بلون أسود لاستحالت الرؤية أمامى ظلامًا أسود قاتمًا ..

استحالت الرؤية أمامى ظلامًا أسود قاتمًا !

فقد ربطوا عينى بعصابة سوداء .. الشيخ يلقننى الشهادتين فتلوهما .. ويداى خلف ظهرى شلتا أخيرًا .. هذا ما كنت أنتظره ..

العصابة السوداء تبتل بماء مالح مصدره عيناى .. روحى تنتظر ترك جسدى و جسدى يئن ألمًا لاقتراب موعد تركها إياه ..

إنه الموت .. ويكذب من قال إنه لا يخشاه .. فليخض تجربته واقعًا كى يدرك سخافة آرائه السابقة التى أطلقها تحت نور الشمس ..

إنها تجربة شنيعة حقًا .. أنك تارك النور .. تارك الهواء .. تارك بشرًا مثلك تكلمهم و يكلمونك .. بل تارك ذاتك خلفك .. أشنع شىء هو أن تعلم أنك ستنام ثم لن تصحو مرة أخرى .. لن ترى الغد و ما سيخبئه الغد ..

اسأل نفسى .. من أنت ؟ ولما أنت من بين كل الآخرين أصبحت أنت ؟

هل تحتقر ذاتك ؟ و هل تحتقرك ذاتك ؟

[صرخات الآخرين لاقتراب منفذ الحكم من المنصة]

إننى أقترب .. هأنا أقترب ..

من أنت ؟ من أنا ؟ لم تر الآخرين وتر وجوههم وتعجز أن ترى نفسك و ترى وجهك ؟

[صوت خطوات المنفذ الثقيلة بجانبى وقبضة على عصا التنفيذ]

هل تقطن جسدك روحان ؟ روح جديدة ولدت منذ ثلاثة أيام ؟ وروح أخرى ماتت منذ ثلاثة أيام ؟

تبًا للأيام الثلاث هذه .. إن التنفيذ سيتم .. لا إن التنفيذ تم و ...

[المنفذ يحرك عصا التنفيذ] ..

وتهاوت قدماى تضرب الهواء وصوتى يضرب الذات .. وتضربه الحياة .. أو بقايا الحياة ..

الموت يقترب .. ببطء .. ثم أقل بطء .. يهرول .. ثم يركض بسرعة هائلة ..

الرؤى الضبابية تتلاشى .. أرى مشاهد لم أرها منذ ثلاثة أيام .. أمنية أتمناها فوجدتها ..

ها هو أنت إذن ..

ها هو أنا إذن .. فأهلاً بالموت ..

ثم ..

* * *

يوم الاثنين ..

ثانى يوم ..

ثم اليوم الثنى .. وألم الرأس يزداد شناعة الثانية تلو الأخرى .. أشعر أن رأسى عظم يكسو جلدًا لا العكس .. ألم الضربتين يتنافسان فى إيلامى ويتنفسان آلامى .. ضربة السقوط على رأسى وضربة الخبر على رأسى .. وويلى عليك يأيها الرأس .. ويا صاحب الرأس !

سواد فى كل مكان حولى .. سواد الجدران .. سواد الظلام .. وسواد الذاكرة .. أبحث وسط شتات أفكارى عن كينونية أكونها فلا أجدها .. أى كارثة هى أن يبحث الإنسان عن إنسان يكونه ؟

لكن الكارثة الأكبر أن يموت هذا الإنسان دون أن يدرى أى أحد سيموت بموته !

قالوا له كف عن ادعاءاتك يا صادق .. تظاهرك هذا لن يفيدك .. إن الحكم سينفذ عليك ولا داعى للمزيد من التمثيل .. لقد لعبت لعبة المختل عقليًا قبلاً وفشلت .. ولعبت دور المريض ولم تفلح .. فابق فى مكانك واستغفر ربك على ما اقترفت واستعد ليومك !

إنه اليوم الثانى .. واليوم الثانى يعنى مرور يومين دون هوية ودون توصل للنتيجة ..

إن حكم الاعدام لمرير جدًا لشخص لا يعرف ما ارتكبه .. شخص يبحث عن ذاته قبل أن يعدم دونها .. أريد أن تموت ذاتى معى .. لا أن أرحل بالعدم و ذاتى معلقة بين الوجود والعدم ..

أريد أن تحيا ذاتى فىّ .. وأحيا فى ذاتى .. لتحيا الحياة بذاتى .. أو بقايا الحياة ببقايا ذاتى !

اليوم ارتديت الزى الأحمر المعروف للمحكوم عليهم بالإعدام .. يقولون إنه يرمز للدم .. لا أدرى لم يعتقدون ذلك .. أنا أراه يرمز للجمال والزهور .. إن الدم أسود أكثر من كونه أحمر .. جرح جبهتى المتجلط يخبرنى بذلك أصلاً .. ولكن هذا لا يهم المهم أن الأحمر ها هنا يرمز للموت .. ولا شىء إلا الموت ..

أجلس ضامًا يدى بركبتى وأبدأ أسيل الدمع أنهارًا ثم أنهارًا !

هل أنا ضيف حل فى هذا الجسد ؟ أتساءل ..

هل سأغادره ليعود صاحبه إليه ؟ أفكر ..

هل سأموت مع جسد لا أعرف هويته ؟ أعتقد ..

رغم هو أن يبدأ الإنسان حياة جديدة تمامًا .. طفل يولد ليكتب لنفسه تاريخا جديدًا .. لكن المفجع بالأمر هو أن يبدأ حياته بحكم بالإعدام !

وتزداد الدموع لهمارًا .. الدموع هى وسيلة شافية لإفراغ شحنات داخلية .. تلعب دورًا فعالاً أكثر من الصراخ حتى .. ولكن تبًا أن كانت تعمل مفعولا عكسيا علىّ

إنه اليوم الثانى .. واليوم الثالث قادم بلا شك .. أعلم هذا .. أعتقد .. وليتنى لأكذب هذا ..

عقارب الساعة تتحرك بالخارج معلنة دورة يوم .. وترف معرفة فوقت خارج عن إرادتى .. أبحث عن النهار من الليل وعن ذاتى بينهما ..

رؤى ضبابية .. المزيد من الرؤى الضبابية .. ثم تتلاشى من جديد ..

الظلام حولى إعلان عن سكون حدث وجودى .. لكن عالما كاملاً فى داخلى ينبئ بصراع من لا وجود له للحصول على هذا الوجود .. إن الاسم صادق جابر عبد الكريم .. هذا أضحى معروفًا .. لكن ما الوجود الذى يحمل هذا الاسم فى هذا العالم ..

من أنا ؟ تبا للعالم .. اللعنة عليك أيها العالم ..

من أنا ؟ أعلم أن آخر ما ستعطينى إياه هو تذكرة مغادرتك دون رجعة .. ليكن هذا .. لكن قبل أن تتركنى لأرحل وترحل عنى .. أرنى صورتى بك وصورتك التى رسمها صاحب هذا الجسم عنك ..

ليموت جسد صادق جابر إلى الأبد فلست أريده .. فقط اريد أن يبقى صادق جابر حيا كى أعرف من هو !

أتساءل حقًا وأنا أنتظر موعدى مع الموت .. لماذا من بين كل الهويات حمل هذا الجسم تلك الهوية ؟ ما أدراني أصلا أن لهذا الجسم هوية ؟ ما أدراني أننى لم أكن من الأساس شخصا بلا هوية .. بلا تاريخ .. بلا حياة .. بلا عمل أرتكبه سوى الغوص بمتاهات البحث عن الذات منذ يومين لتنتهى هذه الرحلة باليوم الثالث ؟

لأرضخ للحقيقة إذن ..

إننى إنسان عمره ثلاثة أيام .. ولد باليوم الأول .. وعاش باليوم الثانى .. و يموت باليوم الثالث ..

الأمس .. يخلق اليوم .. ليفنيهما الغد ..

و ...

* * *

يوم الاحد ..

أول اليوم ..

واليوم الأول الذى سأقضيه خارج دائرة المحكوم عليهم بالإعدام أخيرًا .. يركبوننى السيارة للعودة إلى زنزانة انتظار التنفيذ بعد تظاهرى بالمرض .. حمقى .. لا يدرون أن خلف صادق عبد الكريم جيشًا جرارًا يخرجونه من الموت إلى الحياة مرة أخرى .. ثلاث سيارات ستسد طريق هذه السيارة .. يخرج الرجال المسلحون منها .. والبقية معروفة ..

عملية تغيير ملامح من طبيب أجير .. تذكرة سفر خارج البلاد بجواز لكذب أى عين سلامته .. وثروة تنتظرنى خارج البلاد ..

عندها سأبدأ حياة جديدة .. بهوية جديدة .. ووجه جديد .. وذات جديدة تمامًا ..

إن مملكة المخدرات القذرة السوداء داخل البلاد التى بناها من اسمه صادق جابر ستفنى لتستبدل بمملكة تجارة نزيهة خضراء خارج البلاد بينيها من اسمه .. من اسمه ؟

لا يهم .. إن الأسماء تُشترى بثمن زهيد .. المهم هو أن صاحب هذا الاسم سيملك تاريخا جديدًا .. وحياة جديدة .. وهوية جديدة .. هذه أمنيتى حاليًا .. وأعلم يقينى أننى سأجدها .. وحينها سيموت صادق جابر إلى الأبد .. سيبقى جسده حيا وهذا ما أريده ..

سوف يبحثون طويلا عن صادق جابر .. وغالبا لن يجدوه ..

لأن شخصًا واحدًا يعرف أين هو صادق جابر ..

إنه اليوم الأول وحياة جديدة مقبلة على ..

ابتسم ابتسامة سخرية لرجل الشرطة بجانبى ليقابلنى بنظرة احتقار .. مسكين لا يعلم أن الموت ينتظره برصاصاتى التى ستستوطن صدره .. ها هى السيارات الثلاثة تسد الطريق .. يخرج رجالى رافعين مدافعهم .. الهلع يطل من عيون معتقلى ..

وتبًا للإمدادات السريعة التى تأتى سريعًا .. لا أجد وقتًا .. أركب دراجة نارية بسرعة مع أحد رجالى فارًا .. سيارة شرطة تسرع خلفنا .. الرجل الأحمق على الدراجة قائدًا لها يتعثر من فرط السرعة ويصطدم بسيارة أمامنا .. أطير مرتفعا للسماء .. ثم أسقط على جبهتى .. إنه الظلام السرمدى .. و ضياع الحلم بهوية جديدة .. ضياع الحلم ..

وحتى الحتم بهذا الحلم ..

إنه ..

إنه اليوم الأول .

(تمـــــت)

محمد على البحراني

الكويت

www.liilas.com